القصـــة الأولى

رصاصة واحدة في جيبي!

كلمـــة

كل ما في هذه القـصة من حوادث وشـخصيات هو مـجرد صور أطلقها خيالى.. وكاتب القصـة غير المؤرخ وغير المحقق الصحـفى، إنه حتـى وهو يتعـرض بقصتـه للأحداث الوطـنية العامـة يعتمد على خـياله متحـررا من الارتباط بالواقع.. وكل القـصص العـالمـيـة التي انطلـقت من سنوات الحـرب، أو من الثورات الـوطنية الكبـيرة، لم تكن ترسم واقـعا ولكنهـا كانت خيالا من وحى واقـع.. وقصص الحرب والسلام لتـولستوى، وقصص باردليـان والفرسان الثـلاثة، وقصص جـيمس بوند، ليست سردا لوقائع تاريخية، ولكنها من وحى واقع تاريخى.

وأقول هذه الـكلمة حتـى لا يحاسبـنى أحد بميـزان الواقع، ولكن فقط يحاسب خيالى.

وهذه القصة كتبـتها علي مرحلتين.. كتبـتها أولا قبل حرب ٦ أكتوبر، وتوقـفت بها عند مرحلة معـارك حرب الاستنزاف، ونشرت هذه المرحلة تحت عنوان «رصاصة واحدة فى جيبى» وبعد ٦ أكتـوبر كتبت المرحلة الثانيـة من القصة تحت عنوان «الرصاصة لا تزال فى جيبى».

وأسجل هذه الكلمة حتي يستطيع القارىء أن يعيش في كل أحاسيس بطل القصة.

إحســـان

لقاء فى يوم من أيام عام ١٩٦٨

هل هذا كلام .. يا رجل اعقل .. تحضر.. افتح عينيك.. إنى أجلس أمامك مرتديا بدلة الجندى وفى يدى سلاحى ، ورغم ذلك فإن أول ما تسألنى عنه هو قصتى مع فاطمة.. لم يخطر على بالك أن تسألنى أولا عن قصتى مع اليهود.. قصتى فى الحرب.. ولكن معلهش.. كلنا هذا الرجل.. كلنا أنت.. يبدو أن كلا منا يعيش داخل نفسه، إننا لا نعيش بعضنا مع بعض.. وأنت تسألنى عن فاطمة لأنك تعرف فاطمة وعشت فى قصتها، ولا تسألنى عن الحرب لأنك لم تعش الحرب، ولم تعرف اليهود كما عرفتهم أنا، ولم تحاربهم كما حاربتهم أنا.. ولكن برضه معلهش.. أنا أيضا لم أكن أعرف اليهود ولا أسأل عنهم قبل أن أحاربهم.

أتدرى لماذا قدمت نفسى للتجنيد وأصبحت

(عسكرى) فى الجيش؟ من أجل فاطمة.. فاطمة هى السبب.. فقد كنت أيامها أبحث عن سلاح أقتل به عباس.. عباس بيه.. بعد حكايته مع فاطمة.. ولم يكن عندى سلاح، بل لم أحمل فى حياتى بندقية أو مسدسا، ولا أطلقت رصاصة، حتى ولا خرطوشة من خراطيش «فتح عينك تاكل ملبن» التى نلعب بها فى الموالد والأعياد.. وقضيت عاما كاملا وأنا أبحث لنفسى عن سلاح.. كنت أجلس مع زملائى فى الجامعة وأجرهم إلى الحديث عن السلاح.. عن البندقية والمسدس.. كيف نحصل على السلاح، وكيف نستعمله؟ وتتفتح أذناى إلى قصص الانتقام بالقتل.. رد الشرف.. وأصبح خيالى يقيم تمثال بطولة لكل رجل قتل آخر من أجل فتاة.. من أجل امرأة.. ردا لشرفه.. إنى أريد أن أسترد شرفى.. لن تكون لى شخصية فى القرية، ولا شخصية أعتز بها بينى وبين نفسى إلا إذا استرددت شرفى.. قتلت.

ولم أجد طريقا مفتوحا أمامى إلا أن أضع نفسى فى التدريب العسكرى داخل الجامعة، وأمسكت بالبندقية لأول مرة فى حياتى.. أمسكت بها لأول مرة بيد مرتجفة.. خفت منها.. ولكن إحساسى بفاطمة غلبنى بسرعة، فضغطت بيدى على البندقية وضممتها إلى

صدرى، كأنى أضم باقة الورد التى سأهديها لفاطمة يوم أخلصها من عباس بيه.. يوم أنتقم لها، وللقرية، ولقلبى المجروح. ورغم ذلك مضت أيام طويلة وأنا أتردد كلما هممت بأن أحمل البندقية بيدى.. أنت تعرفنى.. منذ أيام القرية وأنا معروف بأنى هادىء، مسالم، لا أطيق العنف.. وكان الأولاد يذهبون لصيد العصافير ويتركوننى أنا أقرأ القصص تحت الشجرة، وكانوا يلعبون عسكر وحرامية، وأرفض أنا أن أكون «عسكرى» أو «حرامى»، ويتركوننى أردد المواويل والأغانى بصوتى الذى لم يعترفوا أبدا بأنه جميل.. لم أكن أطيق العنف والبندقية هى لغة العنف.. كنت أكرهها إلى حد أنى أشفق على كل من يحملها حتى على الغفير عوضين.. وكبرت ودخلت الجامعة واخترت كلية الآداب قسم الفلسفة، وكراهيتى للبندقية قائمة.. كنت أعتقد أن البندقية هى التى تمسك بالإنسان وليس الإنسان هو الذى يمسك بالبندقية، وظلت كل هذه الأحاسيس تراودنى وأنا أتلقى التدريب العسكرى.. وربما تمكنت هذه الأحاسيس منى أكثر لأن البندقية التى كنت أحملها كانت دائما فارغة.. لم يكن فيها رصاص.. ولم نتدرب على إطلاقها إنما فقط نتدرب على حملها.. ربما لو كان فيها رصاص لجذبنى من

أحـاسيـسى ووضعنى فى حـالة التـأهب للعمل.. لقـتل عبـاس بيه.. ثم إنهم يأخذون البـندقية منى بعـد نهاية التدريب.. لن تكون أبدا معى يوم اذهب إلى القرية.

وبدأ فكرى يتطور.. إن التدريب العـسكرى لن يحقق لى مـا أسعى إليـه لن يجعـل منى قاتلاً لعـباس بيـه.. ورغم ذلك فقـد تغيـرت أثناء هذه الفتـرة.. بدأت أصبح إنسانا آخر.. هذه الجـدية فى الأوامر التى يصدرها لنا المدربون، وهذا الاهتـمام الكبيـر بتربية القوة البـدنية، وهذا الإحساس المستمر بأننا يوما ما سنجد الرصاص فى البندقـية التـى نحملهـا ونطلقـه.. كل هذا بدأ يضع خطوطا جديدة فى شـخصيتى، وبدأ يأخذنـى بعيدا عن عالم الفلسـفة والأدب الذى أردت أن أعيش فـيه.. وهذه الشخصية الجـديدة بدأت تقودنى أيضا إلى العالم الذى أعيش فيه اليوم.. قادتنى إلى الجيش.

... ...

... ...

ماذا تقول ؟

لك حق فيما تقول، إنى اخترت الطريق الطويل البعيد لأنفذ خطة الانـتقام لشـرفى.. ولكن ربما كـان بجانب تصميـمى على قتل عباس بيـه إحساسى بأنى أريد أن أخلق لنفسى شـخصيـة أخرى غير الشـخصيـة الهادئة

المسالمة التى عرفت بها.. ربما أردت أن تكون لى شخصية الرجل القوى الجبار الذى يحترف إطلاق النار، حتى أدخل بهذه الشخصية إلى القرية فأثير الرعب فى قلب عباس وأتركه يموت من الرعب قبل أن يموت بنارى.

وقد فعلت المستحيل حتى ألتحق بالجيش.. لم أكن أريد أن أكون ضابطا فالمهمة أمامى كانت محددة وبعد أن انتهى منها كنت أريد أن أعود إلى الأدب والفلسفة.. وكنت كما تعرف قد بلغت سن التجنيد.. ولكنى طالب فى الجامعة وأمامى عمر طويل أستطيع خلاله أن أؤجل تجنيدى.. وبدأت أتحايل.. وكان أقسى ما مر بى فى تحايلى أن كنت أخفى كل شىء عن والدى.. لو عرف والدى أنى سأجند نفسى لجن، ربما كان أهون عليه أن يأخذ عباس بيه كل بنات القرية ولا يحرمنى من دراستى.. إنه مجرد رجل من رجال القرية كل ما يعيش له هو أن يلقى البذور فى الأرض وينتظرها إلى أن تنمو وتطرح، وقد ألقانى فى الجامعة وينتظر منى أن أنمو وأطرح أستاذا محترما.. لا يهم أى شىء آخر.. المهم أن ينمو الزرع.

وتحايلت .. لا تتصور إلى أى حد تحايلت.. لقد استطعت أن أثبت زورا أنى لست طالبا جامعيا،

واستطعت أن أحشر نفسى فى قائمة المطلوبين للتجنيد.. المظلوم فى كل ما حدث هو عم عبد الله البسيونى شيخ القرية، إنه لم يفهم شيئا عن الأوراق التى طلبتها منه ولم تمر على العمدة.. استسلم لى عم عبدالله استسلامه لأى أفندى قادم من القاهرة.

ودخلت الجيش.. وأرسلت لوالدى أقول له كذبا أنى التحقت بمعسكر تدريب طبقا للنظم الجامعية.

... ...

... ...

أرجوك .. لا تقاطعنى.. أنا لم أضح بمستقبلى كما تقول.. إنى اليوم مقتنع بأنى كنت دائما أسير فى الخط الصحيح.. إن مستقبلى اليوم أوضح وأضمن.. ثم أرجوك.. لا تشدنى إلى الحديث عن عباس بيه.. إن قصته كانت مجرد بداية.. ماذا؟.. ماذا تقول؟ نعم إنه كان يستحق هذه البداية.. لقد كان عباس بيه هو الحاكم بأمره فى القرية.. كان يحكم الناس، والعمدة، والمشايخ، والخفر، وأصحاب الأرض، والفلاحين.. ورغم ذلك لم يكن سوى المشرف الزراعى المتحكم فى الجمعية التعاونية.. وكان كل ذلك يمكن أن يحتمل كما تعودنا الاحتمال منذ وجدنا . لولا أن عباس بدأ يدخل البيوت. امتدت أصابعه داخل حجراتنا.. امتدت إلى فاطمة.

فاطمة ابنة عمى.. حبيبتى.. إنك لا تستطيع أن تتصور مدى حبى لفاطمة، ولا كيف أحببتها.. إنه حب تضعف أمامه الكلمات.. بل إن فاطمة وأنا لم نكن نتصور أن ما بيننا اسمه حب.. إنه إحساس وُلدْنا فيه وعشنا فيه وسنموت فيه.. إنها الحياة نفسها.. ودون أن أتعمد كانت شخصيتى تتكون وتتطور بتأثير حبى لفاطمة، وكنت أبنى نفسى من أجل فاطمة.. هذا الهدوء الذى عرفت به وأنا صبى تمكن منى لأن فاطمة لم تكن محتاجة لأكثر من الهدوء، وإصرارى على تكملة دراستى الثانوية والالتحاق بالجامعة كان لأنى أريد أن أقدم لفاطمة إنسانا يفرحها وتفخر وتعتز به.. وعندما قررت أن أقتل فلأنى لم أجد طريقا آخر أنقذ به فاطمة إلا القتل، ولكى أتعلم القتل جندت نفسى فى الجيش.. غريبة أليس كذلك؟ غريبة أن يجند إنسان نفسه فى الجيش.. ولكنها ليست غريبة عندما يكون لك هدف محدد تجند نفسك من أجله. آباؤنا وأجدادنا كانوا يهربون من الجيش، وكانوا معذورين، لأنه لم يكن لهم هدف يسعون من أجله. زمان كان الطلبة يندفعون فى المظاهرات وهم يعلمون أنهم قد يقتلون برصاص الإنجليز أو رصاص البوليس، وقد يقبض عليهم ويُسجنون، وقد يُشردون ويضيع مستقبلهم، وفى

الوقت نفسه كان نفس الطلبة يهربون من التجنيد فى الجيش، أو يدفعون عشرين جنيها قيمة الإعفاء الذى كان ساريا أيامها، بل إن منهم من يفعل ما يفعله الفلاحون الفقراء فيشوه نفسه.. يقطع أصبعه أو يكسر ساقه.. حتى يعفى من التجنيد.. كل ذلك لأن المظاهرات كانت تمثل أمام الطلبة هدفا يسعون إليه، أما الجيش - أيامها - فلم يكن يمثل أمامهم هدفا.. وربما لو أخذ رأيى لطلبت أن يسأل كل من فى الجيش - لماذا تريد أن تكون ضابطا؟ لماذا قبلت التجنيد ولم تهرب منه؟ إن «لماذا» هذه هى الوسيلة لتحديد تصرفات كل إنسان.. ولو سألونى أنا لماذا لأجبت.. لأقتل عباس.

ولعلك تحس كم تغيرت بعد أن أصبحت جنديا.. كل شىء فىّ تغير.. حتى رنة صوتى واختيار كلماتى بل ذوقى فى اختيار أصناف الطعام.. إنسان آخر غير طالب كلية الآداب قسم الفلسفة.. إنى أحس بأنى تغيرت وسعيد فرح بما تغيرت إليه.. وربما كان كل هذا التغيير قد حدث نتيجة لأنى أصبحت أطلق النار.. إن السلاح فى يدى أصبح كالمسبحة فى يد المؤمن.. أصبحت أؤمن به كأنه الطريق إلى الجنة.. جنة النفس الراضية التى تثق فى قوتها وفى قدرتها.. أتدرى.. إنك عندما تتمكن من السلاح تحس أنك غنى.. مليونير..

وقد أحسست بعد عام واحد مع سلاحى أنى أغنى إنسان فى العالم.. كل يوم أكسب مليونا جديدا، فقد أجدت استعماله إلى حد أن أصبعى التى تضغط على الزناد أصبحت كأنها لسانى أطلق به الأوامر.. اقتل هذا.. أحطم هذا.. وتفوقت فى ضرب النار.. ومنحت وساما.. وشريطا.. ولم يكن أحد ممن حولى يدرى أنى وأنا أصوب سلاحى نحو الهدف أتخيل رأس عباس.. بل إنى كنت أحدد فى خيالى النقطة المركزة التى أريد أن تدخل منها الرصاصة التى أطلقها.. جبينه.. فمه.. قلبه.. وأحدد هذه النقط فوق دائرة الهدف المرسوم أمامنا ونحن نمارس التدريب.. وأطلق.. أقتل.. لقد قتلت عباس مليون مرة.. وفى المساء.. كل مساء.. ربما كان رجال الجيش ينامون بعد أن يتصوروا أن يتدارسوا خطة عسكرية، أما أنا فكنت أنام وأنا أضع تفاصيل خطة التخلص من عباس.. كل التفاصيل.. وقررت الخطة بكل تفاصيلها بينى وبين نفسى.. ثم أخيرا حددت موعد التنفيذ.

كان الموعد بعد أسبوعين.. سأترك الثكنة فى إجازة، وأذهب إلى القرية.. ويتم التنفيذ.. وأسترد شرفى، وشرف العائلة، وشرف القرية.. وأسترد فاطمة.

ولكن ..

فجأة صدرت الأوامر بالتحرك إلى سيناء..

... ...

... ...

يا رجل.. إنك تكاد تصل بى إلى الجنون.. جنون اليأس منك ومن أمثالك.. أقول لك سيناء فتعود تسألنى عن فاطمة وعباس.. رجل فى ثقافتك بدل أن يشغل عقلة وفكره بسيناء وبما جرى لسيناء، يشغله بعباس وحكايتى مع عباس.. معلهش.. لست وحدك.. إننا نحارب والناس مشغولة بسعر الجنيه وأزمة البصل واختفاء الفول، وأحب أن أقول لك إن سيناء شغلتنى عن عباس.. كدت أنساه.. أياما وليالى كثيرة نسيته فيها.. ليس معنى هذا أن سيناء أنقذت عباس منى ومن خطتى للتخلص منه.. ولكنها فقط شغلتنى عنه.. أجلت موضوعه.. لم يكن معقولا أن أواجه اليهود وسلاحى فى يدى وحياتى لحظات، ثم أفكر فى عباس.. لو كنت معى لكنت نسيت عباس أنت الآخر.. ولكن هكذا نحن كل منا يفكر فى نطاق المكان الذى يقف فيه.. الذين يفكرون فى الحرب هم فقط الذين يطلقون النار، أما الواقف على محطة الترام فلا يفكر فى شىء إلا الهروب من دفع ثمن التذكرة.

وأقول لك الحق.. إنى لم أكن أعرف تماما لماذا أنا

ذاهب إلى سيناء؟ كانت أحاديث الحرب بيننا.. وكنت أجلس مع على ومحمود وعبد الهادى وشكرى وبقية زملاء الكتيبة ونتحدث عن الحرب، ونضع صورا وهمية لخطط تدور فى خيالنا.. وأحاديثنا كلها احتمالات.. لو حاربنا.. لو هاجمنا.. لو رأيناهم.. لو.. لو.. لو.. لقد عشنا أياما طويلة فى لو هذه.. دون أن نحس أن هناك شيئا جديدا، ودون أن نتحرك داخل أوامر قتال محددة.. ولكن الثقة كانت ملء قلوبنا.. ثقة قد تصل إلى حد الغرور.. أقول لك صراحة إنى أنا نفسى كنت مغرورا بأيامى وبسلاحى.. وربما لم يكن غرورا إنما كانت حالة تأهب للحركة.. فنحن مانزال على أرضنا، ومهمتنا التى تصورناها هى أن ندخل أرض الأعداء.. أن نهاجم.. ومادام الهجوم لم يبدأ فغرورنا هو نوع من الاطمئنان إلى أننا فوق أرضنا، وهو نوع من تباهى كل منا بما يمكن أن يفعله يوم يهجم.

وفجأة حدث كل شىء.

إن طائرات اليهود فوق رؤوسنا.. والنار.. ونحن نتحرك.. لا أدرى إلى أين، ولكننا نتحرك.. والطائرات فوقنا.. ونحن نصوب أسلحتنا إلى الطائرات..لا نرى إلا طائرات.. وسقط محمود.. وعبدالهادى.. وعلى.. ياأولاد الكلب.. إنهم يقتلوننا.. إخوتى.. كلهم راحوا.. لم يبق إلا

أنا.. وأخذت أطلق النار على الطائرات.. إنى أطلقها فى الهواء.. سلاحى ليس سلاح إسقاط طائرات.. وتنبهت.. لقد أصبحت قائدا لنفسى.. لم يعد لى قائد إلا عقلى.. وعقلى يقول لى: إنى لن أستطيع الآن أن أسترد شرفى.. شرفى المهزوم.. وألقيت بنفسى بين جثث إخوتى.. ادعيت الموت.. وحتى هذه اللحظة لم أكن أتمناه.. لم أكن اتمنى الموت حتى لألحق به بإخوتى تضامنا معهم فى مصير واحد.. إنما كنت أتمنى أن أعيش.. لا من أجل الحياة ولكن من أجل الانتقام.. لقد مرت بى سنوات طويلة وأنا أعيش لأنتقم من عباس.. ولكن عباس أمره سهل.. إن عنقه دائما فى يدى.. ولكن هؤلاء.. أولاد الكلب.. كيف أنتقم منهم؟ هل تعرف.. شىء غريب، فى هذه اللحظات لم أكن أحس بالوطن، ولا بالأرض.. لا بمصر ولا بإسرائيل إنما كنت أفكر فى على ومحمود وعبدالهادى وبقية الشلة التى عشت معها عاما كاملا داخل ثكنة واحدة.. كنت أحس كأنى من عائلة صعيدية قتل أحد أفرادها فلم تبلغ البوليس حتى تتمكن من الانتقام له.. وتقتل القاتل.. هكذا كان إحساسى يومها، لم أفكر فى كتيبة أخرى تأتى لإنقاذى.. ولم يأخذنى تفكيرى إلي احتمال أن تكون هناك معركة أخرى تنتقم لى.. أبدا.. أريد من الله أن

يهبنى القدرة على أن أقتل القتلة.. أقتل عشرين.. عشرة.. أقتل كما قتلونا.

وبقيت ملقى على الأرض بين جثث إخوتى.. وأكثر من ذلك.. زحفت حتى اختبأت تحت جثتين منها حتى أحمى نفسى من قذائف الطائرات.

وسكتت الطائرات..

ربما اعتقدوا أنهم قضوا علينا كلنا.. لم يصلهم صوت أنفاسى.

ومضت ساعة.. ربما أكثر.. وأنا راقد فى حماية الجثتين العزيزتين وسلاحى تحت ذراعى.. وهممت أكثر من مرة أن أتحرك.. ولكن الله وهبنى القوة على الاحتمال، ثم إننى لم أكن أدرى إلى أين أتحرك، بل إنى لم أكن أعرف أين أنا فى كل هذه الصحراء.. أين مكانى فوق الخريطة؟ لم تكن من بين مسئولياتى ان أعرف أين أنا، ولم يقل لى أحد أين أنا؟

إلى أن سمعت من بعيد صوت سيارة.

واقتربت..

إنها سيارة صغيرة إسرائيلية من سيارات الميدان، تحمل خمسة من الجنود.

أو لعلهم ضباط.. وربما كانوا أربعة لا خمسة.. فإنى ألمحها من بين جثث زملائى.. واقتربت السيارة

أكثر.. إنها تجرى بسـرعة وتقفـز فوق جثث الشـهداء كأنها تريـد أن تتأكد أن ليس بينهم أحيـاء.. وأحسست بالسيارة تقـترب من جثتى التى ماتزال حيـة، وبسرعة قبضت على قنبلة يدوية من القنابل التى نحملها ورفعت صمامها، ومرت السيـارة فوق الجثتين العزيزتين اللتين أرقد تحتهما، ومددت ذراعى وأنا أشعر بعجلاتها تحطم عظامى ووضعت القنبلة فى مؤخرتهـا.. مؤخرة السيارة ثم عـدت مختـبئـا وأنا لا أدرى ماذا يمكن أن يـحدث؟ ربمـا سقطت القنبلة وانـفجـرت بين الجثث ومن بينهـا جثـتى، وربما تنـبه من فى السـيارة إليـها وألقوا بـها بعـيدا، ثم عـادوا ليقـتلوا القـتلى مرة ثـانية ويقـتلونى معهم.

ومرت دقائق..

السيارة ابتعدت بضعة أمتار..

وانطلقت القنبلة داخل السيارة، وبسرعة قفزت واقفا وهجمت على السيارة المحطمة وأطلقت مدفعى.. نارى.. ولا أدرى من قتله مدفعى ولا من قتلته القنبلة.. ولكنهم قتلوا.. وكانوا أربعة.. أربعة انتـقاما لثلاثين.. لا يكفى.. أعاننى الله..

وكـان يجب أن أبتـعـد عن كل هذا المـوقع.. مـوقع المعـركة.. إن اليـهود قد يرسلون طائراتهم لـلبحث عن

السيارة المفقودة.. يجب أن أختبىء.. أختبىء أين.. لا أدرى؟ وجريت مبتعدا دون أن أدرى هل أنا أجرى شرقا أو غربا، ولا إلى أى مكان يمكن أن أصل؟ وجريت طويلا وليس فى يدى إلا سلاحى وعدد قليل من الطلقات.. وتعبت.. وبدأت أسير مهدما فوق الرمال، وأتعمد الاقتراب من الصخور لأحتمى بها.. ثم بدأت أنهار.. العطش.. إنى عطشان.. سأموت.. لاشك أنى سأموت.. سأموت من العطش.. والجوع.. إن الموت بالرصاص أرحم.. ربما لو كان زملائى الذين استشهدوا يعرفون بما يحدث لى.. كل هذا الألم، واليأس.. لأخذونى معهم وأشفقوا علىّ من الحياة بعدهم.

والليل.. وأنا أتخبط فى خطاى.. وأقع مرتميا على الأرض ثم أتحامل لأقوم وأخطو خطوتين لأعود وأنهار.. وقررت أن أرقد بلا حركة، ولكنى قاومت أن أغمض عينى، فقد كنت واثقا أنها ستكون الإغماضة الأخيرة.. بعدها لن أفتح عينى أبدا.. وأخذت أكرر الشهادتين.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. لعل الشهادتين تعيناننى على أن تظل عيناى مفتوحتين فإذا غلبتنى عيناى مت فى رعاية الشهادتين.

وغلبتنى عيناى..

نمت..
ومع الفجر فتحت عيني.. لم أمت.. بل إني أحس بأني استرددت بعض قواي، ولساني أقدر على توصيل لعابي إلى شفتي الجافتين.. ثم لمحته من بعيد.. إنه أعرابي يراني ويتقدم نحوي.. وقمت واقفا شاهرا سلاحي نحوه.. وأشار إليّ مسالما.. واقترب مني مبتسما.. ودون أن يسأل شيئا قال في هدوء.. تعال معي.. قالها وقد ترك لي سلاحي.. ثم رفع من فوق كتفه قربة ماء وسقاني منها كأنه يروي لي حياتي.
وتبعته بلا تفكير، كأني استسلمت له.
إن خيام الشيخ علوان قريبة من حيث وجدني.. خيام صغيرة وقبيلة من عائلة واحدة لا تزيد على عشرة أفراد، وعدد من الماعز وجمل واحد.. والشيخ علوان رجل غريب.. هادئ دائما.. مبتسم دائما.. ليس في كل حياته شيء يمكن أن يدل على أنه يعيش وسط معركة بين المصريين واليهود.. وعندما أفتح له موضوع الحرب تتسع ابتسامته، وأحس من اتساعها كأنه يعتبرنا نحن واليهود مغفلين.. ولا يقول شيئا عن الحرب، ولا يدلي برأي.. إن حوله أناساً يتقاتلون لا يدري لماذا ؟ولا يهمه أن يدري.. لقد شهدهم يتقاتلون من قبل على نفس الأرض.. وربما شاهد من

قبلهم الإنجليز.. وهو لم يكن أبدا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.. بل لا يعرف عن مصر إلا أن أهلها مسلمون، ولا يعرف عن إسرائيل إلا أن أهلها يهود.. وهو مع المسلمين واليهود يبقى فى خيمته بين الماعز وبجانب ناقته.. لا شىء يزيد عليه ولا شىء ينقص.. وربما كان على حق.. فحتى عندما اكتشف البترول فى سيناء كانت هى المنطقة الوحيدة التى لم يغير البترول أهلها.. إن بدو سيناء عالم آخر بعيد عن كل الدنيا.. ربما لأن سيناء نفسها لم تستقر أبدا ملكا لأحد، والناحية الوحيدة التى تتحرك فى الشيخ علوان هى إنسانيته، وتقاليد البدو القديمة، وبهذه الإنسانية والتقاليد أنقذنى من الضياع ومن الموت، لمجرد أنى ضائع قد أموت.. لا لسبب آخر.. وربما لو كان قد صادف فى طريقه جنديا إسرائيليا لأنقذه أيضا.. مجرد إنسان.

وقد بقيت مع الشيخ علوان يومين دون أن يمر بنا اليهود.. وعرفت منه أين أنا؟ إنى فى جزء من الصحراء يقع جنوب غزة.. وبينى وبين غزة مسيرة يومين.. واتفقت معه على الخطة.. بل هو الذى وضع الخطة.. أن أترك سلاحى، وأبدل ثيابى.. أرتدى ثياب البدو وأسير معه نرعى الماعز، لمدة يوم واحد، ثم يتركنى بعد أن يدلنى على الطريق إلى غزة.. وكان الشىء

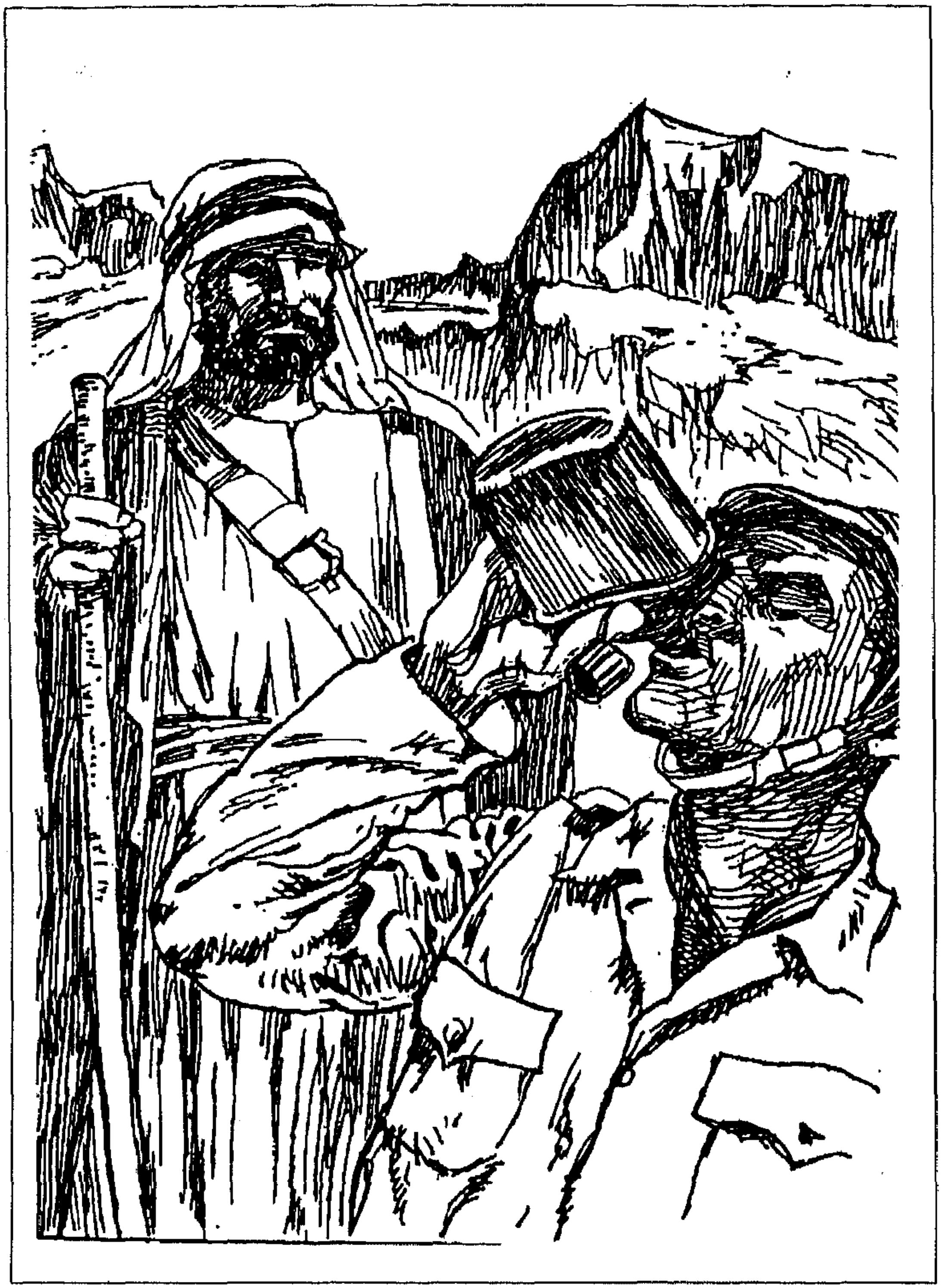

الوحـــيـــد الـذى هزنى من هــذه الخطة ـو أن أترك سلاحى.. كيف أتحرك فى مـيدان قتال بلا سلاح؟ ولم أشك فى أن الشـيخ علوان قـد يكون طامـــعـا فى أن يستولى على سـلاحى.. إن أسلحتنا مبعثـرة فوق رمال الصحراء يستطيع أن يجمع منها الآلاف لو أراد، ولكنى فـقط ترددت قـبل أن أقـتنع برأيه.. إنه لا يسـتطيع أن يسـير مـعى وأنا متـنكر فى صـورة بدوى من الرعـاة، وفى يدى مـدفع مـترلـيوز.. واليــهـود يقـتلون كل من يحمل سلاحا لمجرد أنه يحمل سلاحا وقبل أن يعرفوا إن كان بدويا من الرعـاة أو جنديا مصـريا متنكرا.. إن السلاح هو الشـخصيـة التى تحرك اليـهود، ويجب أن أبدو بلا شخصية.

وتركت سـلاحـى ولكنى قـبل أن أتركــه نزعت منه رصاصة.. رصاصة واحدة.. ووضعتها فى جيبى داخل ثيابـى.. أحسست أنى أريد هــذه الرصاصة حـتى أقنع نفسى بأن مهمتى لم تنته بعد. لم أنته بعد من الانتقام لزملائى الذين قتلوا.. ويوما مـا سـأطلق هذه الرصاصة فى رأس يهودى.. لا أدرى مـتى ولا كيف؟ ولكنى يوم أطلقهـا ـ هذه الرصاصة بالذات ـ سـأحس أنى عدت إلى حيث كنت فى هذه الـبقعة المـجهولة من صـحراء سيناء، وأنى لم أتوقف أبدا عن إطلاق النار.

وبدأنا نسير.. ومعنا أفراد القبيلة الصغيرة، وأنا أرتدى زيا بدويا قديما متواضعا، وقد أطلقت ذقنى، ودربت لسانى على لهجتهم، والخيام وكل ما تملكه العائلة قد حمل فوق ظهر الجمل.. ولم يكن يسير بجانبى إلا الشيخ علوان نفسه.. وهو لا يتكلم كثيرا.. إنه صامت مكتف بابتسامته الدائمة.. فإذا ابتعد عنى الشيخ علوان لم يقترب منى أحد آخر من أفراد العائلة، وحاولت كثيرا أن أتحدث إلى واحد منهم ولكن لا أحد يريد أن يستمر فى حديث معى.. ولم أحس أنهم يقاطعوننى، كما لم أحس أنهم يرحبون بى.. إنى أحس بينهم كأنى شىء عادى يمرون به دون أن يثير اهتمامهم.. كأنى زرعة صبار، أو فرع من الشوك.. وكل مسئوليتى متروكة للشيخ علوان.. ولا شىء ينقصنى.. لا يبخلون علىّ بشىء يستطيعونه.

وكانت تمر بى لحظات أتمنى أن أعيش طول العمر بينهم.. بعيدا عن الدنيا ومشاكلها.. بعيدا عما يسمونه المدنية، والحضارة، والعلم.. إن كل هذه ميادين للقتال، ومنذ بدأ العالم يتقدم وهو يقاتل، وكلما تقدم أكثر قاتل أكثر.. ولأسترح من القتال يجب أن أعود إلى العالم قبل أن يتقدم.. أن أعيش مع قبيلة الشيخ علوان.. إن المدنية والحضارة والعلم لا تصنع الإنسان السعيد المكتف،

ولكنها تصنع الإنسان المهدد بطموحه.. لا يهم.. كلام.. لقد كانت تمر عليّ لحظات أخرى أشك فيها فى الشيخ علوان.. من يدرى.. ربما كان يسير بى ليسلمنى لليهود.. ماذا يهم؟ سواء سرت معه أو سرت وحدى فإنى مهدد باليهود، ولو كان اليهود يعطون الشيخ علوان جزية أو بقشيشا على تسليمى لهم، فهذا أفضل من أن يأخذونى دون أن يضطروا إلى دفع بقشيش.

وافترقنا فى الموقع الذى حدده الشيخ علوان.. ولكنه لم يفارق أبدا ذاكرتى ولا إحساسى.. ودائما وإلى اليوم كلما شدنى خيالى إلى عالم سعيد تمنيت أن أكون فيه مثل الشيخ علوان.. إنسان مكتف.. وقد نصحنى الشيخ علوان عندما أصل أن أحاول أن أتصل بمحمد ذريعة.. إنه من أهالى غزة وهو يعرفه.

وبدأت أسير وحدى..

بلا سلاح ، وأصابعى تعبث داخل جيبى بالرصاصة الوحيدة التى بقيت لى..

ووصلت غزة.. دخلت إليها وهى تحت الاحتلال الإسرائيلى.. عشت تحت رحمة أعدائى.. بل عشت أياما كأنى أقوم بخدمتهم.

... ...

... ...

ماذا تقول ؟ ..

تقول إن كل هذا بسـبب عبـاس.. يا رجل.. ما الذى يجعل عـباس يقفـز إلى لسانك فى كل مناسـبة.. إنك لا تنتظر حتى تسمع منى كيف عـدت إلى مصر.. ربما لا يهـمـك كـثـيـرا أنى عـدت.. آلاف منا لـم يعـودوا ولا تسـأل عنهم ولا عن الذين عـادوا.. وأنا الآن عـدت أحـارب.. وبدل أن تسـأل عن الحـرب وعن المـعـركـة تسألنى عن أسبابها.. وتبـتكر لها أسبابا.. دع الأسباب إلى أن تنتـهى.. إن العـالم لا يفكر فى أسـباب الحـرب وهو يحارب، إنه يحصر كل تفكيـره فى الحرب نفسها. على كل حـال. سـلام عليكم. أراك بخـيـر.. لا، لست غاضـبا مـنك، إنى فقط يجب أن أعـود إلى القناة.. إلى خندقى فى الجبهة.. يجب أن أقدم نفسى قبل أن تنتهى الإجازة.. سلام عليكم.

لقاء فى يوم من أيام عام ١٩٦٩

تقول إنى أبدو سعيدا.. نعم.. ربما أكثر من سعيد، إنى لست مجرد إنسان سعيد، إنى إنسان مغرور بسعادتى.. لا .. لا.. احذر غرورى إنه قد يدفعنى إلى قطع لسانك إذا بدأت تتحدث عن عباس.. ليس ما جرى لعباس هو سر سعادتى.. ومهما جرى له فلن أكون سعيدا به أبدا.. أرجوك لا تأخذنى معك إلى دنياك.. تعال معى إلى دنياى.. إننا شعب واحد ورغم ذلك فنحن نعيش فى عالمين.. عالم يحارب، وعالم يتحدث عن عباس وأمثال عباس.

يا أخى.. إنى سعيد لأنى عبرت.. عبرت القناة.. ألم تقرأ عن عمليات العبور التى تمت.. لقد كنت بين الذين عبروا.. وقد انتظرت كثيرا لأعبر.. بل إنى لم أعد من غزة إلى مصر إلا لأعبر وأحارب.. كنت أستطيع أن

أبقى هناك، حتى لو بقيت وقبضوا عليّ ووضعونى فى الأسر.. فلا فرق بين جندي أسير وجندى لا يحارب وقت الحرب.. كلاهما أسير وكلاهما لا يحارب.. ثم إن فى جيبى رصاصة يجب أن أطلقها.

... ...

... ...

ماذا تقول ؟

تريد أن تسمع عن أيامى فى غزة.. الحمد لله لقد استطعت أخيرا أن آخذك من عباس لتهتم بالحرب. إن حكايتى فى غزة حكاية طويلة، وربما بعد أن تنتهى الحرب وأعود إلى الأدب والفلسفة سأكتبها فى كتاب. فى ألف صفحة.

لقد وصلت إلى غزة وأنا فى زى البدوى وليس معى سلاح وليس فى جيبى سوى رصاصة واحدة، وفوجئت.. لم أكن أعرف بعد أن اليهود قد استولوا على المدينة.. لم أكن أعرف شيئا عما انتهت إليه الحرب.. بل لم أكن أعرف أنها انتهت أو توقفت، وفوجئت بهم أمامى.. اليهود فى دوريات مسلحة.. وسياراتهم وأسلحتهم تملأ الشوارع والطرقات.. ماذا أفعل؟ هل أسلم نفسى وانتهى من كل هذا الضياع.. هل أهجم على واحد منهم وأطبق على عنقه بيدى، وأخنقه؟

ثم أتركهم يقتلونني لألحق بمحمود وعلى وعبدالهادى وبقية الزملاء، ومعى واحد آخر من الذين قتلوهم.. كل النوازع والأفكار والأحاسيس تتضارب وتنفعل فى نفسى.. وأنا قائد نفسى، ليس معى من يتحمل مسئوليتى ولا من يعينني... يجب أن أفكر.. وأفكر فى هدوء.. إن كل ما أريده الآن هو أن أعود إلى مصر لأبدأ هناك من جديد.. ويجب أن أحاول.. إن مجرد المحاولة أرحم من الاستسلام..سواء الاستسلام لليهود أو الاستسلام للموت.

وسرت فى الطريق الذى دلنى إليه الشيخ علوان لأصل إلى بيت صديقه محمد ذريعة.. وتعمدت ألا أسأل أحدا أو أستعين بأحد حتى لا أبدو غريبا بين أهل المدينة فأثير انتباه اليهود.. وقد استوقفتنى دورية من دورياتهم.. وتقدم واحد من جنودها يسألنى إلى أين؟ إنه يسألنى بالعربى وبلهجة تكاد تكون لهجة مصرية.. ربما كان من مواليد حارة اليهود.. ربما كانت أمه قد حاكت يوما ثوبا لأمك.. وافتعلت الابتسام له وأجبته فى خنوع وضعف وتملق وباللهجة البدوية التى تعلمتها من الشيخ علوان.. أجبته بأنى ذاهب إلى بيت محمد ذريعة.. ويبدو أن الجندى كان يعرف هذا الاسم، فالتفت إلى قائده وحدثه بالعبرية وسمعته يكرر له

الاسم.. ثم عاد ينظر إلىّ فى شك وسألنى عن اسمى.. وقلت له: إن اسمى هو ميسر الغزاوى.. اسم طرأ على لسانى فجأة وأنا أحاول أن أخفى شخصيتى.. وعاد الجندى ينظر إلىّ فى شك.. كأنه يثقب رأسى بعينيه.. ثم عاد يتحدث مع قائده بالعبرية.. ثم قال لى: امش، بعدين حانشوفك.. وابتسمت شاكرا، ورفعت يدى بالتحية.. سلام عليكم.. ومشيت وأنا أضغط على أعصابى حتى لا ترتعش خطواتى أو أبدو مرتبكا.. وقد عرفت فيما بعد أن الدورية أطلقت سراحى بهذه السرعة لأن محمد ذريعة معروف لديهم.. وقد وصلت إليه.. إلى محمد ذريعة.. بعد أن تخبطت طويلا فى الشوارع المؤدية إليه.. إنه ليس عجوزا كما تصورت، أو كما كنت أتصور أصدقاء الشيخ علوان.. إنه رجل ربما لم يصل إلى الأربعين من عمره، وبسرعة تبينت أنه يملك عربات نقل، كارو، تجرها بغال عجوز متهالكة.. وبسرعة تبينت أنه ليس رجلا سهلا.. لقد استقبلنى صامتا، حتى عيناه صامتتان لا ترى فيهما أى تعبير.. لم يتكلم بل حتى لم يرد تحيتى.

وتركنى أروى قصتى.. وقد رويتها له كلها دون أن أخفى عنه شيئا، كان فى صمته شخصية آمرة مطمئنة تجعلك تقول له كل شىء. وقام محمد ذريعة من مقعده

دون أن يعلق بشيء على كل ما قلته، ودعاني أن أسير وراءه، ودخل بي إلى أسطبل البغال الملتصق بمسكنه وأشار إلى مكان بجوار الحائط لأنام فيه وقال لي في كلمات قليلة إنه سيعتبرني عاملا عنده وأني مادمت أعمل عنده فإنه ليس من حقي أن أتصرف أي تصرف إلا بموافقته.. وهو يعرف مقدما أني أريد أن أعود إلى مصر، ويعرف أن اليهود قد يكشفون أمري في أي لحظة ويقبضون عليّ وعليه، وكل ما يطلبه هو ألا أتصرف إلا بموافقته.. وكانت كلماته كلها بلهجته الآمرة المطمئنة.. وقررت بيني وبين نفسي أن أستسلم له.. أستسلم لقيادته.

وفي الصباح التالي كنت أعمل (شيالا) على العربات الكارو التي يملكها محمد ذريعة.. أحمل البضائع إلى فوق العربة، وأحملها من فوق العربة.. وكنت في بعض الأحيان أحمل بضائع اليهود.. وقد مر اليوم الأول والثاني وأنا أعاني زوابع ففي صدري تكاد تنفجر بي وأتحسس الرصاصة التي أحملها في جيبي كأني أريد أن أتأكد من حقيقة شخصيتي.. ولكني بدأت أتعود الاحتمال، وأنا أحاول دائما أن أكون مقلدا لمحمد ذريعة.. ابتسم كما يبتسم.. وأصمت كما يصمت.. وأتعامل مع اليهود كما يتعامل.. ووصلت إلى حد أني

أصـبـحت أقـبل البقـشـيش من اليـهـود بعـد أن أنقل بضـائعهم، وكـانوا يعطونه لى وهـم يرددون ضـاحكين.. بقشيـش.. كأنهم يعايرون بالكلمة المـصريين، ولم أكن فى نظرهم مصريا.. كنت بدويا.. وكان اليهود يتعمدون السـخاء فى البـقشـيش وفى الأجـور، كانوا يحـاولون إقناع أهل غزة بأنهم سـينقلونهم إلى عالم أفـضل بعد أن طردوا المصريين، وكان أهالى غـزة يعيشون كأنهم ضحـايا غارة جوية مفـاجئة لم تحطم بيـوتهم، ولكنها حطمت نفـوسهم، وحطمت كل أسلوب حـياتهم، وعـقب الغـارة الجـوية فكل شـعب فى حـاجـة إلى أن يزيل الأنقـاض ويبدأ فى البناء مـن جديد وهكذا كـان أهالى غـزة بعـد الأيام الأولى من دخـول اليـهـود إليـهم.. يحاولون إزالة حطام نفوسهم ومرارة الهـزيمة، ليعيدوا تنظيم أنفسـهـم ويبدءوا البناء.. وكان أكثر مـا يثير فى خيـالى هذه الصورة هو محـمد ذريعة نفـسه.. إنه فى صمته الطويل يخيل إليك أن عقله لا يكف عن الحديث.. وعن التـخطيط.. وعن البحث.. وفى عـينيه الصـامتـتين بريق ينطلق أحـيـانا ويخيل إلىّ أنه ضـوء نار خـافتـة سـتتـجمع يومـا ما لتـحـرق اليهـود.. وكنت ألحظ أنه يختـفى أحيـانا لا أدرى أين، وأحيانا يتـجمع فى بيـته ثلاثة أو أربعة اجتماعـا طويلا لا أدرى عنه شيئا، وإن

كان خيالى يدفعنى إلى تصور أن هناك شيئا كبيرا يدبر.. ولم يكن محمد ذريعة يطلعنى أبدا على شيء، بل لم يكن يتحدث إلى إلا كلمات عابرة لا تزيد على كلمتين فى اليوم.. ربما كان يعتقد أن كل مسئوليته بالنسبة لى هى أن يعود إلى مصر.

وقد أحسست أنى قد اكتسبت ثقة محمد ذريعة، رغم هذا الصمت والتباعد بيننا.. وبعد ثلاثة أيام نقل عملى إلى قائد عربة.. عربجى، وقد فرحت كأنى نلت ترقية ونيشانا، وإن كانت حقيقة فرحتى هى الفرحة بثقة ذريعة، وهى ثقة أخذتها لأنى أثبت أنى عند وعدى له بألا أتصرف إلا بالاتفاق معه.

ثم فوجئت بعد أيام بمحمد ذريعة يطلب منى أن أذهب فى المساء وألتقى بالريس درويش وأعمل معه على مركب الصيد، وقال لى إنى سأعود، وسأعود فى الصباح إلى العمل على العربة.

ولم أناقش..

كنت كما قلت لك مستسلما لقيادته.

وذهبت إلى الريس درويش.. إن المركب ليس كبيرا ولكنه ليس زورقا.. إنه مركب صغير بشراع، ولا يحمل سوى خمسة صيادين أصبحت أنا سادسهم.. ولم يوقفنى أحد من جنود إسرائيل عندما رأونى مع

الريس درويش، ولا عندما رأونى أصعد إلى مركبه.. ربما كان الريس درويش كمحمد ذريعة، كلاهما يتعامل مع اليهود.

وخرج المركب إلى البحر، ولم يكلفنى الريس بعمل، وأشار علىّ أن أنام وأستريح، ولكننى لم أطق الراحة طويلا، وبدأت أساعد فى شد حبال الشباك.

وقبل الفجر عدنا إلى شاطىء غزة.. لماذا عدت؟ لماذا لم ألق بنفسى فى البحر وأسبح إلى شاطىء يحمينى حتى أصل إلى مصر.. ولماذا لم يبحر بى الريس درويش إلى مكان آخر فيه الجيش لأعود إلى غزة منتصرا.. كل هذا كان يدور فى رأسى ويدور بى وأنا أحس بعودة المركب إلى شاطىء غزة.. ولكنى لم أتكلم.. كنت مقررا الاستسلام لأوامر القائد محمد ذريعة.. فقط كنت أتحسس الرصاصة الوحيدة التى فى جيبى.

وعشت أياما أعمل فى الصباح عربجيا وفى الليل صيادا.

ثم كان مساء..

وكنت فى طريقى إلى مركب الريس درويش عندما استوقفنى محمد ذريعة وبين شفتيه أرى لأول مرة شبه ابتسامة.. كانت ابتسامة خيل إلىّ أن فيها نوعا

من الحسرة ثم تكلم كلماته القليلة ليقول لى: يوما ما ستكون فى مصر.. قل لهم إن ما ينقص هو السلاح.

وحاولت أن أتكلم.. أن أفهم ما يعنيه.. أن أنتهزها فرصة وأدخل معه فى أى حوار.. ولكن ذريعة أدار لى ظهره وابتعد دون أن يقول سلام عليكم.

وذهبت إلى المركب..

كانت الليلة الرابعة التى أعمل فيها صيادا، وربما تعلمت شيئا من مهنة الصيد، وتعلمت أين يذهب المركب فى البحر، وأين يتمهل ليلقى الشباك؟ ولكن فى هذه الليلة لاحظت شيئا جديدا، إن المركب يتخذ اتجاها جديدا ولا يتمهل ليلقى الشباك، ولا أحد يعمل أو يتكلم.. ومرت ساعات لا شىء فيه إلا صوت الصّياد الزميل مرعد وهو يلقى أغانيه الحلوة.. والريس درويش يعبث بأصابعه فى شبكته.. وحوالى منتصف الليل.. فوجئت بالريس درويش يتحرك ويلقى أوامره، والصيادون يطوون الشراع طية صغيرة.. وتوقف اندفاع المركب.. ولمحت قاربا صغيرا يقترب يحمل اثنين يجدفان به.

واقترب منى الريس درويش مصافحا وقال لى فى هدوء.. بالسلامة.. توصل بالسلامة.. حاتوصل بإذن الله.. ولا يهمك.

وفهمت..

واحتضنت الريس درويش أقبله.. وقبلت الرجال.. إنهم رجال.. أروع الرجال.. وقبل أن أنتقل إلى الزورق قلت للريس درويش.. سلم لى على محمد ذريعة.. ولم أقل أكثر.. لم أجد ما هو أكثر.

وبسرعة أدار مركب الريس درويش دفته واختفى مع ظلام البحر ليلقى شباكه فى مكان ما، ويعود بالصيد إلى غزة.

وجدّف الرجلان بالقارب.. إنهما أيضا لا يتكلمان.. بل لم يقدما لى نفسيهما، ولم يطلبا منى أن أقدم لهما نفسى.. وأنا صامت مستسلم لقدرى، وأحس أن محمد ذريعة ما يزال حتى الآن قائدى، وأن هذا القارب يتحرك بأمره وبناء على خطته، وأيامى الخمسة عشر التى قضيتها فى غزة تملأ خيالى.. إن اليهود هناك.. متى يخرجون؟ يجب أن يخرجوا .. أتدرى؟ لقد تذكرت عباس بيه وأنا فى غزة.. كان وجه اليهود يذكرنى به.. خيل إلىّ أن اليهود يحتلون غزة كما يحتل عباس بيه قريتى.. ما هو الاحتلال؟ إنه القدرة على التحكم فى أرزاق الناس.. أن تكون متسلطا عليهم بحيث تعطيهم وتأخذ منهم.. واليهود يعطون ويأخذون فى غزة.. وعباس المشرف الزراعى المسيطر على الجمعية

التعاونية يعطى ويأخذ فى قريتى.. إنه احتلال واحتلال.. احتلال أجنبى واحتلال أهلى.. احتلال شغل بره واحتلال منه فيه.. وكنت أكذب نفسى فى كل هذا.. ربما هزيمتى ولهفتى على مصير فاطمة بين يدى عباس، هى التى تطلق فى عقلى هذا المنطق.. ثم إن ما بيننا سهل، تستطيع أن تجد له حلا.. إن ما بيننا فى أيدينا.. ولكن الصعب هو ما ينصب فوق رءوسنا من خارجنا ولن نصل إلى السهل إلا إذا تخلصنا من الصعب.

والقارب يجدف بي.. وأصابعى تعبث بالرصاصة فى جيبى.. ترى هل أطلقها يوما.. هل اقترب يوم إطلاقها؟ والرجلان يجدفان فى صمت وقد عرضت أن أجدف بدل واحد منهما حتى نتبادل الراحة، ولكنهما اعتذرا وشكرا.. وقد مر بخيالى احتمال أن يضبطنا زورق من زوارق اليهود.. ماذا أفعل؟ إنى مرتد زى الصيادين ولهجتى أصبحت بدوية، وشكلى غزاوى.. فهل هذا يكفى حتى أنقذ الرجلين اللذين يجدفان بى من اكتشاف أمرهما؟ ربما كان الأجدى والأشرف أن ألقى بنفسى فى البحر وأموت غرقا بمجرد أن ألمح زورقا معاديا حتى أنقذ الرجلين الفدائيين.. فداء من أجل فرد كل قيمته عندهما أنه قاتل وسيقاتل.. ولكن.. ربما كانت كل

هذه الاحتمالات بعيدة.. ربمـا كانا أدرى منى بتحركات الزوارق اليـهوديـة.. إنهمـا يجـدفان باطـمئنان وقـوة.. والشاطىء يبدو داخل الليل من بعيد..

وبعد الفجر.. مع ملامح الصباح.. اقترب القارب أكثر من الشـاطىء.. وتـكلم أحـد الرجلين.. إننا فـى منطقـة أمان.. لا قوات إسرائيلية هنا.. وسأسير طويلا.. وأشار الرجل بذراعه قائلا: تسير غـربا.. ثم أعطيانى قربة ماء صغـيرة ورغيف خـبز.. مع الســلامة.. وصافـحتهـما.. سـلامى للريس درويش ومحـمد ذريعـة.. وقفـزت من القـارب.. إنى أسـير.. أسـيـر على أرض سـيناء.. وكل سلاحى رصاصة واحدة فى جيبى.

وسـرت.. لم أكن أسـير إنى أكـاد أجـرى.. اريد أن أصل.. أن أصل إلى سـلاح أضـع فـيـه رصـاصـتـى.. ووصلت مـع الليل.. وصلـت إلى مــشــارف منطقــة بورفؤاد.. إنى ألمح رجالنا من بعيـد.. جيشنا.. وجريت إليهم وأنا أصرخ مهللا..

ولم أجد بينهم من يعرفنى معرفة شخصية.. ورويت قصـتى لأول من قابلنى.. وكنت أرويهـا بسرعـة كأنـى انتظر منه أن يعطينى سـلاحا أضع فيه رصـاصتى ثم نعـود معـا إلى داخل سيناء نبـحث عن اليهـود.. ولكن النظام.. لقد نسيت من طول مـا عانيت أنى لست مجرد

مقاتل.. أنى جندى نظامي.. وكان يجب أن أقدم نفسى للقيادة.. ثم انتقلت إلى بورسعيد.. ثم إلى القاهرة.. مكاتب.. مكاتب.. مكاتب.. وأمام كل مكتب أروى قصتى، وأحيانا يكتفى مكتب بكلمتين من القصة كلها.. شهور طويلة وأنا أعيش بين المكاتب.. ورصاصتى فى جيبى لا أجد لها سلاحا.

... ...

... ...

ماذا تقول ؟

تسألنى لماذا لم أذهب إلى قريتى؟ إنى لا أستطيع أن أذهب إلى القرية قبل أن أطلق رصاصتى.. ثم إن قريتى لم تعد الأفدنة العشرة التى يملكها عمى أبو فاطمة.. إن قريتى أصبحت أى مكان أملك فيه سلاحا أستطيع أن أطلقه على اليهود.. إن قريتى لم يعد اسمها كفر يمامة.. إن اسمها اليوم سيناء.. وقد ذهبت إلى قريتى.. انتهت إجراءات المكاتب، وصدقنى القادة، ونلت وساماً وشريطاً، وأكثر من ذلك.. لقد انضممت إلى إحدى الفرق الفدائية داخل الجيش.. إنك لا تدرى ماذا يعنى هذا؟ يعنى أننى أستحق أن أكون فدائيا.. وكان أول ما طلبته وبحثت عنه ووصلت إليه هو ن أحمل نفس السلاح الذى كنت أحمله فى أول معركة لى

معهم.. وما إن أمسكته بيدى حتى أخرجت الرصاصة من جيبى ووضعتها فى داخله.. كأنى أهدهد طفلى فى مهده.. خلاص.. نسيت كل هذه الشهور الطويلة التى مرت بى، وعدت بكل كيانى وإحساسى إلى اليوم الذى كنت فيه.. إطلاق النار لم يتوقف.. إنى مازلت كما أنا وسلاحى فى يدى ورصاصى لم يفرغ.. وقد سقط.. على وعبدالهادى ومحمود من حولى ولكن اليهود أيضا يسقطون برصاصى.. إنى أنتقم لهم.. أنتقم لكل واحد بعشرة.

كانت هذه هى نوازعى وأنا مرابط بين زملائى على ضفة القناة.

إنك لا تدرى كيف أحس وأنا واقف هناك على ضفة القناة وعيناى مركزتان فى غل على الضفة الأخرى.. إنى أحس كأن على الضفة الأخرى كائنا يستغيث بى.. صراخ استغاثته يملأ صدرى.. الأرض تستغيث بى، والمستقبل يستغيث بى، وشرفى يستغيث بى.. وأرواح الآلاف من إخوتى تستغيث بى.

ومن المستحيل أن أسكت وقلبى ملىء بهذه الاستغاثات.. وربما لو أنى رأيت إسرائيليا يسير على الضفة الأخرى لأطلقت عليه النار وقتلته دون أن أنتظر أمرا بإطلاق النار.. دون أن أحتمل الانتظار.. وربما

عرف اليهود عنا هذا فقد ابتعدوا عن الظهور بحيث لا نستطيع أن نراهم.. لم نعد نراهم ولكننا كنا دائما نرى بأعيننا الحقيقة.. وصوت الاستغاثة يملأ صدرى.

ونحن نتحرك مع القادة.

إلى أن عبرت.

أتدرى كيف عبرت أول مرة؟ كانت الخطة تقسمنا إلى فرقتين.. فرقة من خمسة أفراد تعبر فى قارب متسترة فى الليل.. وفرقة أخرى من فردين اثنين تعبر سباحة من جانب آخر.. وكان الهدف نقطة حراسة إسرائيلية مختبئة فى (دشمة) كبيرة محصنة أقيمت من الأسمنت المسلح.. وعبرت الفرقة الأولى سالمة.. وعبرت أنا وزميلى سالمين، وزحفنا على بطوننا إلى أن أصبحنا فى مكان محدد.. وانتظرنا قليلا.. وبعد لحظات بدأت الفرقة الأولى من الجانب الآخر تطلق النار، واتجهت إليها كل امكانيات قوة الحراسة.. كل النار من داخل الدشمة انصبت على الجانب الآخر.. وبسرعة تحركت أنا وزميلى وقفزنا فوق سقف الدشمة وتدلينا من فوقها إلى فوق مدخلها وألقينا بقنابلنا من فتحتها إلى داخلها.. وانفجرت قنابلنا.. انفجرت داخل الدشمة.. إن هذه القنابل كان لا يمكن أن تحطم سقف الدشمة إذا ألقيت من فوقها، كما لا يمكن أن تصيبنا إذا

انفـجرت فى داخلهـا ونحن فوقـها.. وجـرى من داخل الدشمة عدد من أفراد قوة الحـراسة من اليهود.. كانوا خـمسـة الذين خـرجـوا إلينا.. هاربين من الانفـجـار.. وتلقـيناهم بسـلاحنا.. أطلقت رصـاصـتى.. وقـتلت بهـا واحدا منهم.. وأصـبعى على الزناد كـأنها لسـانى يأمر سلاحى.. اقتل.. فيقتل سلاحى كل من يمر أمامى.

وقضينا على الدشمة بكل من فيها.

فى دقائق.. ليس أكثر من دقائق.

وانسحبنا بسرعة.. لم نفقد سوى شهيد واحد سقط من بين أفراد الفرقة الأولى، وحملناه معنا فى انسحابنا ليـبقى دائمـا معنا.. لا يأخـذه اليهـود حتى وهو جـثة عزيزة كريمة.

أتدرى ماذا رأيت بين اليـهود الخمسة الـذين خرجوا إلينا من الـدشـمـة؟ فـتـاة.. أى والله.. فـتـاة.. وكـانت مـسلحة.. لا .. لا.. أبدا لم أحس أنـها فـتاة حـتى وأنا أراها بعينى.. كـل ما أحسـسـت أنها مسلحـة.. ولا فرق بين رجل يحمل السلاح وامرأة تحـمل السلاح.. كلاهما يحمل لقب مقاتل.. ولكـن من يومها وأنا أتصور أن فى كل دشمة يهود فتاة.. للقتال وللترفيه.

ومع انبثاق الفـجر بـدأت طائرات إسرائيل تضـرب فـوقنا، بعد أن عـبرنا عـائدين، وضـحكنا ونحن داخل

المخابىء.. إنهم ينتقمون.. ولكن انتقامهم لن يصل بهم إلينا ولو وضعوا كل طائرات العالم فوق رؤوسنا. إن المخابىء أقوى من الطائرات.

أتدرى ما هو أقوى سلاح فى العالم؟ إنه ليس أحدث الطائرات، ولا أحدث الصواريخ ولا أحدث المدافع.. إن أقوى سلاح فى العالم هو العقل.. الذكاء.. التخطيط.. إن أمريكا تملك أقوى أسلحة العالم، ورغم ذلك جننتها فيتنام.. بالعقل.. بالذكاء.. ولا شىء يمكن أن ينتصر إلا العقل والذكاء.. قائد ينتصر على قائد، معناه قائد أذكى من قائد، ولا يهم بعد ذلك عدد الأسلحة ونوعها وكميتها، بل لا تهم الشجاعة، والتدريب والإيمان والوطنية.. المهم دائما هو الذكاء الذى يجيد استعمال الأسلحة ويجيد استعمال الشجاعة والتدريب والإيمان والوطنية.. ويجيد ما نسميه التخطيط.

... ...

... ...

تسألنى لماذا لم أعد إلى القرية مادمت قد أطلقت الرصاصة التى كانت فى جيبى؟ هل هذا سؤال؟ هل هذا كلام؟ إن معى اليوم آلاف الرصاصات.. ليست فى جيبى.. إنها فى سلاحى.. ورغم ذلك فقد تعودت من أيامها.. من أيام الشيخ علوان. أن ألتقط من داخل

سلاحي رصاصة أحتفظ بها كلما تركته.. حتى لو تركته فى إجازة.. كأنى أعده بأن أعود إليه.. إن فى جيبى الآن رصاصة.. انظر.. هذه هى.. ويجب أن أعود بها إليه.. إلى سلاحي..

آسف.. لم يعد لدى وقت.. سلام عليكم.

لقاء فى يوم من أيام عام ١٩٧٠

نعم.. عرفت.. لقد ترك عباس القرية.. قيل إنه: نقل وإنه رقى إلى منصب كبير.. وقيل إنه استدعى للتحقيق معه.. ولا أحد فى القرية يعرف الحقيقة، كل الحقيقة التى يعرفونها هى أنه ذهب.. اختفى.. وهم مختلفون.. بعضهم نادم على ذهابه ويكاد يبكيه، وبعضهم يتنهد فى راحة ويلعن أيامه، وحياة القرية كلها مرتبكة، لقد تعودت على عباس وما تزال فى حاجة إلى وقت طويل حتى تتعود على مفتش الزراعة الجديد الذى يتحكم فى الجمعية التعاونية.

إنك لا تعرف عباس.. لم يكن يبدو عليه عندما جاء إلى القرية شىء مما اكتشفناه فيه.. شاب.. مثقف.. خريج كلية الزراعة.. هادئ دائما.. مبتسم دائما.. يتحدث إليك فتشعر فى دقائق كأنه يعرفك العمر كله..

يعرف مشاكلك ويعرف أفكارك ويعرف عواطفك.. أتدرى؟ لقد أحببت عباس عندما التقيت به، وأصبحت صديقا له وكنت أسعى إليه أكثر مما يسعى إلىّ.. ولم تهتز هذه الصداقة إلا بعد أن وجدت عباس قد أصبح صديقا لعمى عبدالله أيضا.. إن عمى شخصية أخرى غيرى ولا يمكن أن تجمع صداقة واحدة بيننا نحن الاثنين.. إنه معروف فى الأسرة وفى القرية كلها بأنه إنسان يصل إلى ما يريد عن أى طريق.. وقد بدأ وهو لا يملك سوى خمسة أفدنة، وكان نصيبه من الإرث أقل من نصيب أبى، لأنه من أم أخرى.. وفى سنوات قليلة أصبحت هذه الأفدنة الخمسة، عشرين فدانا.. كيف؟ لا أحد يدرى.. كل ما ندريه أنه صديق لكل المسئولين فى القرية، وفى المركز، وفى المديرية، وربما فى القاهرة أيضا.. وقد أصبح صديقا لعباس المفتش الزراعى المتحكم فى الجمعية التعاونية.

أتدرى ما هى الجمعية التعاونية؟ إنها السلف الزراعية، وهى الكيماوى، وهى المبيد، وهى التراكتور.. إن التراكتور كمدفع الميدان يسيطر سيطرة كاملة، ولكنه يسيطر سيطرة عكسية على سيطرة المدفع.. فإذا ضرب التراكتور أرضك ليحرثها فأنت منتصر، وإذا تخلى عنك ورفض أن يضربها فأنت مهزوم.. والمدفع

فى يد عباس، وقد وضعه فى خدمة أرض عمى.. ووضع فى خدمته السلفيات الزراعية مهما تمادى فى تزوير أوراقها.. وحتى الإنتاج الزراعى الذى تستولى عليه الحكومة، فقد كان عمى قد زرع الفول فى عشرة أفدنة، وكان المفروض أن تستولى الحكومة على كل إنتاج الأفدنة العشرة بسعر ثمانية جنيهات للأردب، وبواقع إردبين للفدان، ولكن عباس ترك عمى يسجل أنه لم يزرع من الفول سوى فدانين، حتى يبيع باقى إنتاج الأفدنة العشرة فى السوق السوداء بسعر الأردب ستة عشر جنيها.. تصور.. كم يسرق عمى فى مثل هذه الصفقة، وما هى نسبة تقسيم المسروقات بينه وبين عباس؟

وكان كل هذا يعرف بين طبقة المزارعين فى القرية.. ولكن.. وفيها إيه يا أخى هو أخد حاجة منك، مش أحسن ما تلهفه الحكومة.. لا أحد يؤمن بأن أموال الحكومة هى أموال الناس، ربما ولا حتى الحكومة نفسها.. ثم إن عباس لم يكن مكتفيا بصداقة عمى، إنه صديق لأعضاء الجمعية من الفلاحين، وصديق العمدة وشيخ البلد، وصديق رئيس القرية، وأعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى.. نوع واحد من الصداقة يفرضه على كل مراكز القوى فى القرية بالمدفع.. أقصد بالتراكتور..

... ...

... ...

ماذا تقول ؟

لماذا أتكلم هذه المـرة عن عباس؟ ربمـا لأن لسانى فى فـمى، وقد كـان لسـانى فى المرات الـسابقـة على أصـــبـــعى أتحكم بـه فى زناد ســـلاحى.. كنت أتــكلم بأصبعى.. اضرب.. اقتل.. أدمر.. وقد مضت مدة طويلة سكتت فيـها أصـبعى، وانتقل لسـانى إلى فمى فـبدأت أتكلم عن عباس.

وقـد كان أمـر عـباس يمكن أن يحـتـمل.. يمكن أن انتظر عليـه إلى أن أتم دراسـتى وأتفـرغ له.. لولا أنه تسلل إلى داخل الـبـيت.. بيت عـمى.. واسـتـولى على فاطمة.. فاطمة حبيبتى.. ولا تتـعجب فقد أحبته فاطمة.. أحبته كـما أحببته أنا فى سنواته الأولى، ولكنهـا أحبته بأحلامـها البـريئة، وبالخـرافات التى تمـلأ خيالـها عن صور المستقـبل السعيد، وبثقافتهـا الفجة الفارغة التى تقارب الجهل والتى حرمـتها من اكتشاف الحقيـقة كما اكتشفتها أنا.

ولاشك أن عـمى اكتشـف ما بين عـباس وفاطـمة.. ولعله سكت حتى لا يثير أزمة قد تحرمه من التراكتور ومن سلفيات الجـمعية الزراعيـة، أو لعله سكت متطلعا

إلى مستقبل يمنحه قوة أكبر بعد أن يناسب التراكتور.. ولاشك أيضا أن عـباس كان يعد.. أنا أعـرفه.. لم تكن وعوده تنتـهى.. أما أنا فقـد عرفت بهـذا الحب قبل أى إنسان فى القـرية. فإنى أعرف كل ما فى فـاطمة وهى تعرف كل ما فى بمجـرد التقاء أعيننا.. وسكت.. سكت لأن حـبى لفاطمـة أكـبر من أنانيـتى.. أكـبر من حـبى لنفسى.. وقد خيل إلىّ أن عباس يمكن أن يحقق لفاطمة سعادة ومستقبلا لا أستطيع أن أحققهما لها.

ولاشك أن عبـاس نفسه كـان يعرف حبى لفـاطمة.. ولكنه كان يتـجاهله.. ولم نتبادل يومـا ذكرها ولا جاء اسمها على لسـانى أو لسانه.. وكان يريحنى منه ومن كل ماأعانيه أن أترك القرية إلى دراستى فى الجامعة.

إلى أن عدت مرة.. ولم يكن شىء قد تحقق أو أعلن بين فـاطمـة وعـبـاس.. ليس فـى القـرية كلهـا سـوى همـسـات.. وفـوجئت بـعبـاس يحـدثنى عن فـاطمـة.. لم يحدثنى عنهـا حديثا جادا ولكنه، يتحـدث كأنه يلقى بنكتة. لسـة بتحب بنت عمك.. ويضـحك.. ثم أخذ يكرر هذه النكتـة أمـام عمى وأمـام أصـدقائنـا.. فاطمـة له.. عـايزين نفـرح بيـهم.. ربـنا يوفق، وأنا أكـاد أجن ولا أدرى سر هذا الاهتـمام المفـاجىء بقصتى مع فـاطمة، ووصلت بى حيرتى إلى حد الاعتـراف لنفسى بغبائى..

هل أصدق أنه يريد فعلا التوفيق بينى وبين فاطمة.. ولماذا؟ ما دخله.. ولماذا لا يوفق بينهاوبين نفسه؟ والتقى بفاطمة فأحس أنها قد أصبحت بلهاء.. حتى عيناها اللتان كنت أفهمهما ليس فيهما سوى بلاهة.

وتركت القرية.

عدت إلى الجامعة، وفوجئت بعد أسابيع بفاطمة بجانبى، لقد جاءت من القرية مع أخيها الصغير بحجة زيارة خالتها، وهى تبكى، وفى عينيها مأساة، إنها تقف أمامى كأنها على حافة بئر تكاد تقع فيها.

وعرفت كل شىء.. وسعيت وحاولت حتى حملتها إلى طبيب يستر فضيحتها، وفضيحتى، وفضيحة القرية كلها، وأحاسيسى كلها تتجمع فى ثورة عارمة على عباس.. على كل مافعله عباس بنا وبقريتنا.. ولكن حتى هذه الأيام كانت ثورتى تحكمها طيبتي، وحبى للهدوء، واندفاعى وراء الأدب والفلسفة وما يصورانه لخيالى.. كنت أتصور أنه يمكننى إقناع عباس بأن ينقذ فاطمة.. يسترها.. ولكن بعد أيام وصلنى من القرية أن كل الناس تتحدث هناك عن قصتى أنا وفاطمة.. واستنتجت ما يحدث.. إن عباس يتعمد إذاعة هذه القصة حتى يتخلص من قصته.. حتى يهرب ويحملنى المسئولية.. أنا الذى فعلت.. وأنا الذى أخطأت وأنا الذى أجرمت..

حتى إذا عرفت القرية بعد ذلك شيئا عما جرى لفاطمة كنت أنا المسئول عما حدث.

وهنا قررت أن أقتل..

أقتل «عباس»..

وهكذا بدأت القصة..

... ...

... ...

ماذا تقول ؟

نعم.. ذهبت إلى القرية هذه المرة.. ورأيت فاطمة.. إنها لم تعد فاطمة الجميلة الحلوة الهادئة الساذجة.. إنها فاطمة الحائرة التائهة البلهاء وليس فى عينيها ما أفهمه سوى الألم والخجل.. وأنا أصبحت المسئول عنها.. ولكن ماذا أستطيع؟ كيف أعيد إليها شبابها، ولمعة عينيها، وزهرة خديها، ونعومة شعرها، وكيف أجعلها ترتدى الثوب الأخضر الجميل الذى أحببته عليها دائما.. كيف.. أتدرى؟ إنى وأنا أطل على وجهها المكدود قفزت إلى خيالى صورة على ومحمود وعبدالهادى وبقية زملاء الكتيبة الذين سقطوا بجانبى.. ثم صوت الطائرات تضرب.. والمدافع.. والصواريخ.. ووجدت أصابعى تمتد فى جيبى لتتحسس الرصاصة الوحيدة.. يجب أن أعود.. أعود إلى هناك.. وبعدها

أستطيع أن أبقى بجانب فاطمة لأعيد إليها سعادتها.. ولأبحث عن عباس.

ورغم ذلك تقدمت إلى عمى لأخطب فاطمة..

وقال عمى وقد أصبح أضعف مما تعودت أن أراه.. وهو يبتسم ابتسامة خيل إلىّ أنه يشكرنى بها.. قال لى كيف أخطب وأتزوج وأنا لم أنته من دراستى لأعمل، ولا أنا قررت الاستقرار فى القرية لأزرع.

إنه لا يدرى أننا فى حرب.. وإن كان يدرى فلا يعلم أن لى نصيبا فيها.

ولكنى وافقته على رأيه.

وعدت .

... ...

... ...

نعم إن الرصاصة فى جيبى ويجب أن أعود بها لأضعها فى سلاحى.

أتذكر محمد ذريعة الغزاوى الذى سبق أن حدثتك عنه.. لقد قبض عليه اليهود وقيل إنهم قتلوه، إنى أتخيل نفسى وقد عدت إلى هناك وملأت مكانه.

الوقت ضاع.. لا أدرى متى يمكن أن نلتقى ثانية.. سلام عليكم.

القصة الثانية

الرصاصة
لا تزال
فى جيبى !

لقاء فى يوم من أيام عام ١٩٧٤

ماذا تقول ؟

تقـــول إنك لم تـكن تصـــدق.. ولا أنا.. صدقنى أنى أنا الآخر لم أكن أصدق أن كل هذا يمكن أن يحدث.. لقد مـضت بى شهور طويلة، وأنا أعيش فى القرية بعد أن اختفى منها عباس بيـه، واليأس والملـل يزحفـان على صــدرى يوما بعـد يوم.. كـانت الرصــاصــة الواحـدة لا تزال فى جـيـبى، ولكنى بدأت أفـقد إحســاسى بها.. كنت قـد تعودت أن أمشى وأجلس ويدى فى جيـبى أتحسس بأصابعى هذه الرصاصــة كأنى أعـيش مع العهـد الذى قطعتـه على نفـسى وهو أن أعود دائمـا لأضع هذه الرصاصــة فى سلاحى وأطلقها لأقـتل به عدوى.. وبدأت أتنبه إلى أنى أمـــشى وأجلس أحـــيـانا ويـدى ليـست فـى جـيـــبى

والرصاصة ليست بين أصابعى، وكنت عندما أتنبه أعيد يدى إلى جيبى، كأنى أصدر لها أمرا بالوقوف فى ميدان القتال.. ولكن هناك دائماً فرقا بين تنفيذ الأمر والتمسك بالعهد.. إنك عندما تحارب تنفيذا لأمر فإن القائد الذى أصدر الأمر هو الذى يحارب، وعندما تحارب اندفاعا وراء عهد فإنك أنت الذى تحارب. ولذلك فإن الرصاصة بين أصابعى لم تعد تحركنى، ولم تعد تدفعنى إلى العودة إلى الميدان.. أصبحت كأنى جندى يتلقى الأوامر بلا إحساس.. بل إنى اكتشفت مرة أنى خرجت من البيت دون أن أضع الرصاصة فى جيبى، تركتها فوق المائدة التى تجاوز فراشى حيث تعودت أن أتركها قبل أن أنام.. وعندما اكتشفت أنها ليست فى جيبى حاولت أن أتجاهلها، أن أصرف النظر عنها، ولكنى لم أستطع.. بدأت أحس بطرقات تخبط على رأسى وتملأ أذنى، كأنها تذكرنى بإخوتى الذين استشهدوا بجانبى فى المعركة.. على ومحمود وعبدالهادى وبقية الفرقة التى عشت معها فى الثكنات، كأنها تذكرنى بأيامى وأنا أقاتل وأقتل وهى الأيام التى خلقت شخصيتى الجديدة التى أعيش بها حتى اليوم.. فعدت.. عدت إلى البيت والتقطت الرصاصة، وأعدت وضعها فى جيبى.

ورغم ذلك مـرت الشهـور وأنا لا أستطيع أن أقـاوم اليأس والملل. وأكـاد أستسلم لهمـا.. لست وحدى.. كل أهل القـرية كانوا يعـيشون اليـأس والملل.. كان يـخيل إليهم أنه بعـد أن ترك عبـاس بيه القرية، فـقد تركتـها الحياة كلها، كانت السنوات الطويلة الـتى عاشـها عباس بيه مـعنا قد خلقت منا مـجتمـعا تعـوّد أن يعيش على أسلوب عباس بيه، وأخطائه، وجشعه فى فرض أطماعه وسلطته على الجـميع.. وكان وكيل الجـمعية التـعاونية الجـديد إنسانا آخـر غيـر عـباس بيـه.. كل شىء فيـه يختلف عن عـباس.. ليس له أسلوب عباس فى التـعامل مع الناس، ولم يسـتطع الناس أن يصلوا إلـى أطماعـه الخاصـة حتى يتعاملوا معه على أساسها.. ربما لم تكن له أطماع خاصـة.. لا يريد فرض سيطرته، ولا يريد أن يجمع ثروة على حساب الفـلاحين، ولا يريد أن يعتدى على فتاة حلوة كـما اعتدى عبـاس.. على فاطمة.. ولكن أهل القـرية لم يسـتطيـعوا أن يتـصـوروا أنه يمكن أن يوجد مخلوق على وجه الأرض ليست له أطماع يحققها من أرزاقهم وعلى حساب حـياتهم.. ثم بدأ يدهشـهم أن الوكيل الجديد عبدالحميد بيه، يصمّم على تطبيق اللوائح والقوانين، ويتـقصى تطبيقـها إلى حد يتحـدى به أكبر رأس فى البلد.. حتى عـمى الذى عاش عـمره كله وهو

يستطيع بعلاقاته مع وكيل الجمعية أن يتحايل على أى قانون أو لائحة.. لم يعد يستطيع أن يتحايل.. يا أخينا.. يا عبدالحميد بيه.. إن اللوائح والقوانين ليست سوى ثوب يغطى جسدا عاريا لا تجرى فى دمائه لوائح ولا قوانين والقرية عاشت عارية آلاف السنين .. فكن عاقلا.. كن واقعيا.. دع اللوائح والقوانين فى حالها، وتعامل من خلال المصالح المتبادلة مع رؤساء القرية.. أبدا.. إن عبدالحميد بيه مصمم أن التقاوى توزع باللوائح والقوانين.. والتراكتور يتحرك فى أراضى الفلاحين باللوائح والقوانين.. والحكومة تحصل على نصيبها من الإنتاج الزراعى باللوائح والقوانين.. وقد تركت هذه اللوائح والقوانين أهل القرية يختلفون فى الحكم على عبدالحميد.. بعضهم أصبح يتصوره داهية يرمى إلى تحقيق أهداف بعيدة يحققها لنفسه أكبر من أطماع عباس بيه.. ربما يريد أن يستدعى يوما إلى القاهرة ليصبح فى درجة أعلى أو وزيرا.. وربما يبدأ هذه البداية حتى يشعر أهل القرية بقوته وبعدها يفرض سيطرته وإرادته ليستنزف حياتهم.. والبعض الآخر من أهل القرية بدأ يتصور عبدالحميد بيه كأنه رجل طيب، عبيط، لا يعرف كيف يستفيد، إنما يخضع للقوانين كأى موظف طيب عبيط.. ومع هذا فكل شىء

يتغير فى القرية.. إن عمى يفقد شخصيته المسيطرة التى كان يفرضها من خلال عباس بيه.. لم يعد صديقا خاصا لعبد الحميد بيه، ولم يعد ينال من التقاوى وخدمات التراكتور أكثر مما ينال أحد من أهل القرية.. ولكن عمى لم يستسلم.. إنه يحاول من خلال أتباعه من أهل القرية أن يحل محل عباس بيه.. أن يصبح هو عباس بيه.. فبدأ يثير المشاكل فى وجه عبدالحميد، ويسلط الناس عليه ليثيروا مشاكل أكثر.. وعبدالحميد لا يواجهه بشىء أكثر من القوانين واللوائح.. ياخيبتك يا عبدالحميد بيه.

وفاطمة..

حبيبتى فاطمة..

ابنة عمى فاطمة..

إنها تعيش كدمية جميلة أشبه بعرائس المولد.. كان يخيل إلىّ أنها فقدت كل أحاسيسها.. لم تعد تفرح ولا تحزن.. لا تحب ولا تكره.. ولا تتحمس ولا تبرد.. إنها أكثر أهل البلد استسلاما لليأس.. إنها كل اليأس.. إنها النهاية.. نهاية كل شىء.. وكنت أنا مع الأيام ازداد نسيانا لخطيئتها مع عباس بيه.. لم تعد فى نظرى وإحساسى مخطئة، ولكنها ضحية.. مجرد ضحية من

آلاف الضحايا الذين وقعوا بين براثن أشباه عباس بيه.. وازداد تعلقا وحبا للضحية، وأحاول جاهدا أن أنتشلها من الاستسلام لليأس.. من حالة النهاية التى تعيشها.. كنت أتردد كل يوم على بيت عمى لأراها.. وكانت تبتسم بمجرد أن ترانى، ثم تختفى ابتسامتها مباشرة بعد أول نظرة، لتعود شفتاها منطبقتين، لاهما مبتسمتان ولا هما حزينتان.. وأتحدث إليها طويلا، ويخيل إلىّ أنها لا تعى ما أحدثها عنه، وإذا تكلمت ردا على سؤال لى، كان ردها أشبه برغيف من العجين لم يدخل الفرن بعد ليصبح له طعم.. كلمات لا طعم ولامعنى لها.. وكنت أتعب فى العثور على موضوع أحدثها عنه.. حدثتها عن كل أنواع أعمال البيت، وعن كل آرائى السياسية، وعن كل أحداث القرية والمدينة والعالم كله، كنت أنقل لها ما أقرأه فى الصحف، وكنت أتعمد أن اقرأ كتبا، وأحيانا أقرأ قصصا، لأعود وأروى لها ما قرأته.. وهى كما هى.. لا تنفعل ولا يتحرك عقلها مع ما تسمعه.. كأن كل ما تسمعه كلام سبق أن سمعته، ولم يعد يحركها أو يثير شيئا من فكرها.. وكنت أحيانا آخذها لنسير معا فى الحقول خارج القرية.. وكنت أسير بجانبها كما تعودت أن أسير بجانبها منذ كنا أطفالا.. لا أمسك يدها.. ولا أحاول أن

ألمسها.. ولم أكن فى قرارة نفسى أحس بحاجتى لأن أمسك يدها أو ألمسها فقد كانت الحب الذى ولدت به.. الحب الذى يسرى مع دمى.. حبا ليس فى حاجة أن يعبر عن نفسه ولا حتى بلمسه.. حبا أكبر من أن ينقلب فى أى لحظة إلى شهوة.. ثم حدث مرة أن كنا نهم أن نعبر قفزا فوق قناة صغيرة، فمددت يدى وأمسكت بيدها لأعاونها على القفز.. فإذا بها تشد يدها بعيدا عن يدى وتنظر إلىّ فى هلع وخوف.. وانفغرت شفتاها فى صمت كأنها تكتم صرخة.. وفوجئت.. ودهشت.. إنه شىء جديد بالنسبة لفاطمة.. إن فاطمة لم تخف من قبل أبدا من يدى.. ولكن دهشتى تبخرت سريعا.. إن كل لمسة أصبحت تذكرها بلمسات عباس بيه.. حتى لمستى.. وعذرتها.. أشفقت على الضحية.. وسبقتها وقفزت فوق القناة وحدى، وتركتها تقفر وحدها.. وقفزت.. وسقطت واقعة على الطرف الآخر من القناة.. وتركتها دون أن أتقدم لرفعها، إلى أن مدت إلىّ يدها فرفعتها.. ولم تشكرنى.. لم تنطق بأى كلمة حتى لو كانت كلمة ضاحكة.. بل لم تبتسم مجرد ابتسامة.. ولكنها قامت من سقطتها وعادت تسير بجانبى كعروسة المولد.. وإن كنت قد أحسست بأنها تشعر بالاطمئنان كأنها تسير بجانب من يحميها.. وهذا

ما كنت أحس به دائماً.. أحس بأنها تحتمى بى.. أحس بأنها تعترف بحاجتها إلىّ.. أحس بأنى بالنسبة لها الأمل الذى ترقد فيه بعد أن قتلها اليأس.. أنا الأرض التى وضعت فيها الجثة.

ومرة أخرى تحركت فيها فاطمة.. انطلقت من عالم اليأس، لتدافع عن نفسها.. كان ذلك عندما قرر عمى أن يزوجها لنعمان متولى.. ونعمان هو أحد رجاله الذين يستخدمهم فى تدبير المكائد والمؤامرات ضد عبد الحميد بيه وكيل الجمعية الزراعية.. أراد أن يعطيه ابنته كرشوة كما سبق أن أعطاها لعباس بيه.. ونعمان فرح بهذه الرشوة، حتى لو كان يعلم أن فاطمة سبق أن اعتدى عليها، فهو على الأقل سيرث بها العشرين فدانا التى يملكها عمى.. ولم يكن أحد فى القرية كلها - ولا أنا - يعلم بخطة هذا الزواج إلى أن دخل عمى على فاطمة يوما ليبلغها أنه وافق على أن يزوجها لنعمان.

أبلغها عمى هذا النبأ كأنه يتكلم إلى ابنته وهو يعلم أنها وصلت من الانهيار إلى حالة لا تستطيع معها أن تفهم شيئا، فتستسلم، كما هى مستسلمة إلى نهايتها.. وتلقت فاطمة النبأ كأنها فعلا لا تفهم شيئا.. ولكن شفتيها بدأتا ترتعشان.. ووجهها يحتقن.. واستمر عمى يلقى لتفاصيل الإعداد للزواج.. وفجأة صرخت فاطمة..

صرخت صرخة لم يسمعها البيت منها أبدا.. ثم بدأت تقفز كالمجنونة وترفع كل شيء في الحجرة تصل إليها يداها وتحطمه على الأرض، وهي تصيح في جنون:

- لا .. لا .. لا ..

وذهل عمي.. واندفع كل أهل البيت إلى داخل الغرفة.. وكنت منهم.. وربما أدى الذهول بعمي إلى حد أن فقد كل تقديره للمأساة التي تعانيها فاطمة، فهجم عليها أمام أهل البيت، وانهال عليها ضربا.. وهي صامدة أمام ضرباته.. لا تسقط ولا تكف عن الصراخ.. إلى أن استطعت أن أبعده عنها، وشددته خارج الغرفة، وأجلسته بعيدا، وهو يقول من خلال صدره المتهدج بالغضب:

- يكفي أني وجدت من يقبل أن يتزوجها.. ألا تعرف ما هي فيه؟

واستعنت بكل أعصابي حتى أواجه عمي بهدوء.. لم أحدثه عن فاطمة، ولا عن حبي لها.. ولكني بدأت أحدثه عن مصالحه.. عن كسبه.. والمصالح والكسب هي أقوى لدى عمي من أي شيء.. وقلت له: إن نعمان متهم بأنه باع نصيبه من التقاوي في السوق السوداء،

وإن عبدالحميد وكيل الجمعية قدم ضده بلاغا للنيابة وينتظر أن يقبض عليه اليوم أو غدا.. وكان الخبر صحيحا، ولكن لم يكن أحد يعلمه من أهل القرية، كعادة عبدالحميد بيه في عدم إعلان أي إجراء قبل أن يتم.. وبسرعة غير عمي رأيه في الزواج، لمجرد أنه خاف على نفسه من أن يقبض عليه مع نعمان، لأنه هو الآخر زور في قائمة محصول الفول - كعادته - ليبيعه في السوق السوداء.

وقلت لعمي:

- لا تنس أنك وعدتني بأن تحتفظ بفاطمة لي.

ونكس عمي رأسه، وقال في صوت خفيض يخرج من بين أسنانه:

- فيك الخير يا بني.

وسقط مشروع زواج فاطمة من نعمان.

وقد سبق أن قلت لك في لقائنا السابق: بأن عمي رفض أن يزوجني فاطمة لأني لست متفرغا لزراعة أرض أبي، ولم أحصل بعد على شهادتي الجامعية حتى أحصل على وظيفة.. وقد اقتنعت بكلامه أيامها.. ولكن زواجي من فاطمة كان يلح عليّ دائما، وكنت كل يوم أقرر أن أترك الجامعة، وأترك الجيش، وأتفرغ للزراعة

لأن القرية كلها فى حاجة إلىّ.. إن القرية بعد عباس بيه فى حاجة إلى بناء جديد يفرض علىّ أنا والمتعلمين من شباب القرية أن نتفرغ له.. أو ربما كنت أقول لنفسى هذا الكلام حتى أستطيع أن أتزوج فاطمة بتفرغى للزراعة.. ولكن.. كانت هذه الرصاصة الواحدة فى جيبى، تحيرنى دائماً..

إنى لا أستطيع أن أتفرغ للقرية..

ولا أستطيع أن أتم تعليمى وأحصل على شهادتى الجامعية.

لا أستطيع وهذه الرصاصة الواحدة لا تزال فى جيبى.

● ● ●

ماذا تقول ؟

تريد أن أحدثك عن المعركة.. إن كل هذا حديث عن المعركة، فيجب أن تقدر الحياة والظروف التى يعيشها المقاتل قبل أن يقاتل.. إنها ظروف كانت تخمد وتفتت روح القتال فى أى مقاتل، وقد كادت تخمد روحى أنا الآخر، فرغم أنى مازلت أحتفظ بالرصاصة الواحدة فى جيبى، فقد بدأت أحس بأنى أتحول إلى جندى عادى من المجندين رغم أنوفهم.. لست بطلا ولا فدائيا يحمل

وساما.. وبدأت أفتعل الحجج لأحصل على إجازات أذهب خلالها إلى القرية.. وأفتعل الحجج لأمد فى أجل كل إجازة.. بل إنى بدأت أفكر فى السعى إلى وظيفة مكتبية داخل الجيش حتى أعفى نفسى من الحياة داخل الثكنات، وأستطيع أن أقضى ليلى حرا، وأنام فى البيت.. وكل هذا كان ممكنا، فحتى هذه الأيام لم أكن قد لاحظت أى تطور يتم فى حياتنا العسكرية.. كل شىء لا يزال كما كان، ويمكن أن يتم بالواسطة وبالكلمة الحلوة.، خصوصا أنى اعتبر بين المجندين من فئة المثقفين.. والمثقفون كان لهم فى الجيش دلال.

إلى أن كان يوم..

وكنت فى القرية..

وجاءنى شيخ الخفر يبلغنى أنه قد وصلنى استدعاء بأنى مطلوب فى الجيش.. ودهشت، فلم تكن إجازتى قد انتهت بعد، ثم إن قيادة الفرقة لم تتعود استدعائى حتى ولو أطلت فى الإجازة.. وأمسكت بورقة الاستدعاء فى يدى وبين شفتى ابتسامة ساخرة.. لماذا يريدوننى؟ لقد مضى الآن أكثر من عامين وآخر عملية عسكرية قمت بها أيام ما كان يسمى حرب الاستنزاف.. ومن يومها والحياة داخل الفرقة حياة روتينية مملة.. نقضيها فى تمرينات لسنا فى حاجة إليها، ونقضى

الوقت الأكبر فى الدردشة.. مجرد الدردشة، دون أن يحدث بيننا أى جديد.. لا سلاح جديد.. ولا تدريبات جديدة.. ولا عمليات جديدة.. حتى مواضيع الدردشة لا تتغير وليس فيها جديد.. فلماذا يريدوننى اليوم؟ ربما انضم إلى الفرقة ضابط جديد يريد أن يثبت جدارته وعسكريته باستدعاء المجندين.. مجرد استكمال مظهر.

وأعدت ورقة الاستدعاء إلى شيخ الخفر، وطلبت منه أن يحفظها عنده كأنه لم يجدنى فى القرية.. ووافق شيخ الخفر كعادته فى معاملة شخصيات القرية إرضاء لهم.

وبعد يومين.. يومين فقط.. عاد إلىّ شيخ الخفر وهو يلهث ووجهه ممتقع.. لقد وصله استدعاء آخر تأكيدا للاستدعاء الأول.. ومأمور المركز اتصل به صارخا يسأله عنى، ويطلب منى تقديم إثبات بأنه أبلغنى الاستدعاء.. واستعطفنى شيخ الخفر.. اعمل معروف.. ماتودنيش فى داهية.. استلم الاستدعاء وبعديها اعمل اللى أنت عاوزه.

وازددت دهشة..

إلى هذا الحد يلحون فى استدعائى.

ربما حدث جديد.

وفى لحظات استعدت كل حماسى.. وإيمانى.. وانطبقت أصابعى على الرصاصة الواحدة فى جيبى.. ومررت على فاطمة، والتقيت معها كعادتنا فى نظرة صامتة، ولم تسألنى إلى أين وهى ترانى أحمل حقيبتى، فكأنها كانت تحس دائماً بأنى مهما ابتعدت عنها فلن أتركها وحدها أبدا.. ولكنها ابتسمت.. فاطمة تبتسم بعد كل هذه السنوات الطويلة التى تجمدت خلالها شفتاها، تبتسم.. وحملت ابتسامة فاطمة فى قلبى، وتركت القرية.. وأنا متفائل.. متفائل بابتسامة فاطمة..

وعدت إلى القاهرة..

ولا تدرى ما أحسست به عندما وجدت نفسى بين إخوتى أفراد الفرقة الفدائية الخاصة التى تضمنى.. إنى فجأة أحسست كأنى أسترد ما ضاع من شبابى.. كأنى عدت إلى الوراء ست سنوات أطير بأجنحة الحماس لأقاتل وأقتل.. إنهم يتحدثون وكلماتهم تنطلق أشبه بالزغازيد أو بطلقات مدفع مترليوز.. يتحدثون عن أسلحة جديدة.. وتدريبات جديدة.. وخطط جديدة.. وقيادات جديدة.. ومن خلال أحاديثهم تتجسم فى خيالى خريطة سيناء كلها.. سيناء التى قاتلت فيها

عام ٦٧ واستشهد فوق أرضها كل إخوتى أفراد فرقتى.. سيناء التى عدت إليها عام ٦٩ فى عمليات فدائية متكررة أطلقت خلالها رصاصتى التى كنت أحملها فى جيبى لأقتل بها واحدا من الذين قتلوا إخوتى، ثم تركتها وفى جيبى رصاصة واحدة أخرى تنتظر أن أطلقها، عندما أعود. لم يعد فى خيالى شىء إلا سيناء.. حتى القرية لم تعد تشغلني.. وفاطمة ساكنة هادئة بين ضلوعى.

وبدأت التدريب..

وأحسست بنفسى كأنى جندى جديد يبدأ يتعلم ألف باء العسكرية.. إن أمامى سلاحا جديدا لم أره من قبل، ولا أعرف عنه شيئا.. طبعا سمعت عن الصاروخ سام ٧.. إن سام ٧ ليس وحده.. أمامى عشرات من الأسلحة الصغيرة لم أرها من قبل.. وأنت لا تقدر إحساس المقاتل وهو يتسلم سلاحا جديدا.. إنه يشبه إحساسه وكأنه يتعرف إلى صديق جديد.. ويتطلب وقتا طويلا حتى يتم هذا التعارف وتتوطد الصداقة بين المقاتل والسلاح، ويفهم كل منهما الآخر، ويتعود كل منهما على الآخر، ويصبح مصيرهما واحدا.. إذا أسرت أسر معى سلاحى.. وإذا استشهدت استشهد معى سلاحى ودفنته معى فى الرمال، أو نقل جثة هامدة

ليعرض فى معرض الغنائم.

ولم يكن التدريب يتم فى المناطق المخصصة حول الثكنة والتى تعودنا أن نتدرب فيها.. أصبحنا نتدرب فى مواقع بعيدة تتغير كلما تطلب التدريب طبيعة أرض مختلفة.. تدربنا فى الفيوم.. وفى نجع حمادى.. ومناطق أخرى كثيرة لن أحددها لك.. سر.. المهم أن كل هذه المناطق التى تدربنا فيها كانت صورة لمنطقة مماثلة لها تقع داخل سيناء، حتى لا تفاجئنا أى طبيعة أرض يوم أن نعبر إلى سيناء.

• • •

ماذا تقول ؟

تريد أن أنتقل بك إلى المعركة.. يا أخى اصبر.. لا يمكنك أن تفهم ما جرى لنا فى المعركة إلا إذا فهمت كيف أعددنا أنفسنا لها.. ولكن هذه هى عقليتك.. ربما كانت عقليتنا كلنا.. نتطلع ونفكر فى النتائج دون أن نهتم بالمقدمات.. إن المعارك فى نظركم أشبه بالمظاهرات.. مجرد مظاهرة وطنية يكفى أن يرتفع أمامها هتاف حتى يخرج الطلبة إلى الشوارع.. لا يا أخى.. إن الحرب علم.. أشبه بالإعداد والتجارب والاختبارات فى علوم الكيمياء.. أى يجب أن تتأكد من

نجاح التجربة قبل أن تعلن عن اكتشافك.. ولم نكن فى هذه الأيام نتدرب مجرد تدريب بل كنا نجرى تجارب.. وربما كانت أبرز تجربة اشتركت فيها هى التى قمنا بها فى الفيوم حول بحيرة قارون.. لقد افترضنا أن البحيرة هى قناة السويس.. وأقيم خلفها فى المنطقة الصحراوية التى تقع على الشاطىء الآخر ساتر رملى ضخم مرتفع كالساتر الذى أقامه اليهود على الضفة الشرقية.. وخلف الساتر أقمنا خط بارليف.. خطا كاملا يعتبر صورة من خط بارليف طبقا للمعلومات التى جمعتها مخابراتنا عن هذا الخط.. وبدأنا التدريب.. واستغرق التدريب على مجرد عبور القناة - أى عبور بحيرة قارون - شهورا.. تعلمنا كيف نعبرها سباحة، ونعبرها بالقوارب الصغيرة، ونعبرها غطسا تحت الماء، وكيف يقاوم فوق الماء جسور العبور.. كل هذا كان يتم بفرق عسكرية متعددة، كل فرقة تتدرب فى حدود اختصاصها الذى كلفت به، وبعد شهور بدأنا نتدرب على اجتياز الساتر الرملى.. طبعا قرأت وسمعت عن المضخات المائية التى فتحت الساتر أمام قواتنا.. إن هذه المضخات كانت معنا فى الفيوم.. ولم تكن هى أول ما فكرت القيادة فى استعماله.. لقد جربت جميع الوسائل لاختراق الساتر.. تجارب.. تجارب.. تجارب..

إلى أن انتهت التجارب بنجاح تجربة المضخمات المائية القاذفة.. إنك لا تتصور دهشتى وأنا أسمع عن هذه التجربة.. من كان يصدق أنه يمكن عسكريا اجتياز حاجز بمضخة ماء.. لقد شعرت وأنا أسمع كأنى انتقل إلى عالم جديد.. عالم لم أكن أعرفه ولا أعيش فيه.. عالم وصل بفكره إلى هذا الحد.

وفى الوقت نفسه كانت تجرى التجارب على الاستيلاء على خط بارليف الذى أقيم على ضفة بحيرة قارون.. لقد اشتركت أنا فى هذه التجارب، وأخطأت أثناء التجربة، أخطأت خطأ عوقبت عليه عسكريا.. وكان يمكن أن يصل العقاب إلى حد نزع الأشرطة التى أعلقها على ذراعى والتى نلتها فى عمليات ٦٩.. ولكن محمود.. النقيب محمود.. اكتفى بمعاقبتى إداريا.. فقد حدث أن.. لا .. لن أروى لك قصة خطأى الآن، لأن نفس الخطأ كررته أثناء المعركة، وسأرويه لك وأنا أحدثك عنها.. المهم أن التدريب مستمر.. أتدرى.. لقد وصل بى التدريب إلى حدود لم أكن أحلم بها ولم تكن تخطر ببالى.. لقد دربت على القفز بالبراشوت.. المفروض أنى جندى مشاه، ولكن المشاه فى الجيوش الحديثة لا يعتمدون على المشى على أقدامهم إلى مواقع القتال.. إنهم ينقلون بالسيارات، وغالبا ينقلون

بالطائرات، والانتقال بالطائرات يفرض على الجندى أن يقفز بالبراشوت.. ولأنى جندى فى فرقة فدائية خاصة، فقد أصبحت أحوج إلى التدريب على القفز بالبراشوت.. ليس معنى هذا أنه كانت هناك خطة موضوعة مسبقا تفرض علىّ القفز بالبراشوت.. لا.. ولكنه كان نوعا من التدريب على كل الاحتمالات التى قد تتطلبها الخطة عندما توضع.. ولا تدرى ماذا كان شعورى وأنا أهبط بالبراشوت معلقا بين السماء والأرض.. اعترف لك أنى عندما بدأت التدريب كنت أحس بنوع من الغباء يفرضه إحساسى بالاستسلام لأوامر القيادة دون التحمس لها، فلم أكن أبدا من هواة الطيران أو القفز.. ومضت أسابيع طويلة أتعبت خلالها مدربى وأنا أقفز من فوق برج خشبى عال ثابت على الأرض.. ولكنى مع الأيام بدأت أسترد روح التحدى.. التحدى للجهل.. يجب أن أقفز، ويجب أن أكون أقدر من يقفز.. وسرت فى خط التدريب الصعب بأقدام ثابتة.. إلى أن حملتنى الطائرة.. وقفزت.. إنك لا تدرى إحساس المقاتل وهو يهبط من السماء فوق أعدائه.. لقد كان يخامرنى إحساس بأنى مرسل من السماء لحماية كلمة الله.. وصد أعداء الله.. كنت أحس بنفسى كأنى نوع جديد من الملائكة.. ملاك مسلح يحمل فوق كتفه بدل الأجنحة صواريخ سام

سبعة، ويحيط وسطه بالقنابل، وفى يده مدفعه الرشاش.

المدفع.. البندقية.. إنك لا تدرى قيمة هذه البندقية عندى رغم كل الأسلحة الحديثة التى فى يدى.. إنها السلاح الذى انتهى إليه دائما.. السلاح الذى أطمئن على نفسى وهو معى.. نفس البندقية التى حملتها عام٦٧ وعام٦٩، والتى أحمل رصاصتها فى جيبى لأزودها بها يوم أطلقها على عدوى.. وقد وصل بى الأمر إلى حد أننى تصورت أن التطور فى الأسلحة سيصل إلى حد حرمانى من بندقيتى.. وسألت النقيب محمود.. هل سيأتى اليوم الذى أحرم فيه من بندقيتى.. إنى أرفض.. إنى مستعد أن أحمل الصواريخ، وجميع أنواع القنابل ولكننى سأحمل معها دائما بندقيتى.. وضحك محمود.. إن نوع السلاح يختلف مع اختلاف الهدف الذى تقصده، والمسافة التى تفصلك عن العدو.. إنك لا تستطيع أن تواجه دبابة ببندقية، فتواجهها بصاروخ.. ولا تستطيع أن تدمر خندقا للعدو ببندقية فتدمره بقنبلة.. ولا تستطيع أن تعتمد على البندقية وأنت على بعد عشرة كيلومترات فتعتمد على المدفع.. ونحن الفدائيين مهما تزودنا بالصواريخ والقنابل. سنبقى دائما فى حاجة إلى البندقية، بل فى حاجة

أيضا إلى الخنجر، لأننا نلتصق بالأعداء فردا فردا.. وطمأنني محمود.

لقد كان محمود شيئا جديدا بين ضباط الجيش.. ليس وحده.. ربما كل الضباط بدءوا حياة جديدة.. إنك لا تعلم مدى تأثير هزيمة ٦٧ على ضباط الجيش، لقد خلقت منهم نوعا جديدا من الضباط.. ضباط لا يجلسون وراء المكاتب، ولا يكتفون بإصدار الأوامر، ولا يعيشون كطبقة منفصلة راقية تعلو فوق رؤوس جنودهم.. إن كلا منهم أصبح يعيش بنبضات الانتقام.. الانتقام لنفسه.. واستعادة قيمته بين جنوده، كل منهم يحس أنه كان المسئول عن كل الجنود الذين استشهدوا تحت قيادته وربما أصبح يتمنى لو أنه استشهد معهم، وقرر في المعركة القادمة ألا يكون له مصير إلا مع مصيرهم.. حتى الضباط الجدد الذين دخلوا الجيش بعد الهزيمة، دخلوه وقد تبخر من أذهانهم أن الضباط سلطة حكومية.. أو أنه عضو في تشكيل سياسي لا في قوة عسكرية.. هذه الروح الجديدة جعلت كل المجتمع العسكري يعيش أياما جديدة.. أنت لا تتصور أنه خلال العامين اللذين أمضيتهما في التدريب لم يكن بيننا حديث في السياسة.. ولا تندر بالمناصب التي تمنح للضباط داخل

الشركات الصناعية والتجارية.. أصبحت كل أحاديثنا عن الأسلحة، وكل قراءتنا عن الحرب، ونجتمع فى المساء لنسترجع حوادث التدريب، أو ليحكى أحدنا تفاصيل معارك تاريخية قرأها فى كتاب، ومعنا غاليا محمود.. إنه معنا كتفا بكتف، حتى فى التدريب.. إنه لا يكتفى بإصدار الأوامر أو مراقبتنا بل يشترك معنا فى ممارسة التدريبات كلها.. إنه يطلق النار معنا.. ويزحف على بطنه معنا، ويقفز من الطائرة قبلنا.. وهو قاس. ولكنه قاس على نفسه أكثر مما هو قاس علينا.. ولذلك أحببت محمود.. كلنا أحببناه.. كلنا احترمناه.. وكلنا دخل معه فى حوار عنيف فقد كان يبدو كأنه أكثر تطرفا منا فى إقدامه أثناء ممارسة التدريب.

وكان لمحمود الفضل الأكبر فى أنه علمنا الصمت.. أوحى إلينا دون أن يطلق أى أوامر، بأن الحياة العسكرية يجب أن تنفصل تماما عن الحياة المدنية.. أى لا نترك المدنيين يعيشون بأفكارهم حياة الجيش، ولا نترك الجيش يعيش بأفكاره حياة المدنيين.. هذه هى العسكرية.. أن يكون العسكرى عسكريا فى كيانه وفى إحساسه.. وبهذا تعلمنا أن نصمت كلما خرجنا من الثكنات فى إجازتنا.. لا أحد يعرف ماذا يجرى بيننا؟ ولا بأى سلاح نتدرب.. ولا شىء.. وكنت أذهب إلى القرية فى إجازتى، فإذا سئلت أجبت: أهى ماشية..

ربنا معانا.. أما نشوف آخرتها إيه.. دون أن أسرد أى تفاصيل، وحتى دون أن أقول إننا سنحارب.. ولم تكن فاطمة كعادتها تسألنى.. ولكن الشىء الجديد الذى كانت تستقبلنى به هو هذه الابتسامة التى ودعتنى بها عندما عدت إلى الجيش.. الابتسامة التى أتفاءل بها وتمنحنى الثقة فى المستقبل.

كنت أحيانا أفقد الثقة فى المستقبل.. لقد مضى علينا عامان واستكملنا خلالهما كل ما يمكن أن يتطلبه التدريب، ورغم ذلك لا نحارب.. والقيادات السياسية تتحدث كل يوم عن الحرب ثم لا حرب.. والصحف التى نقرؤها تستنزف صفحاتها فى الحديث عن النشاط الدبلوماسى وعن اجتماعات الأمم المتحدة، كأن هذا هو الطريق الوحيد، بل إن صدور قرار دولى فى صالحنا أصبح يعتبر نصرا لمصر، كأنه انتصار فى معركة حربية.. كل ذلك دون أن نقوم بأى عملية حتى لو كانت مجرد عملية فدائية، أو حتى عملية فردية.. وكل ذلك جعلنى أقضى فترات وأنا لا أصدق أننا سنحارب يوما.. بل كانت تمر علىّ لحظات أفكر فيها أن أحرض بعض إخوتى أفراد الفرقة لنقوم بعملية سرية لحسابنا، ونعبر دون أى أوامر.. بل إنى فكرت أن أحرض النقيب محمود نفسه على أن يقودنا فى مثل

هذه العملية.. ولكنى لم أفعل.. كانت هذه الأفكار تنكمش فى رأسى بسرعة كلما رأيت أو سمعت عن عملية تدريب جديدة بتخطيط جديد.. لا يمكن أن تتم كل هذه التدريبات بأوامر القيادة دون أن تكون القيادة مصرة على الحرب.

● ● ●

يا أخى.. اعمل معروف.. دعنى على حريتى فى الكلام..

أعرف أنى أردد كلاما ربما لم تكن فى حاجة إليه أو سبق لك أن سمعته.. ولكن لا تنس أن العسكرى يصوم عن الكلام سواء فى المعركة أو فى التدريب.. وقد مضى عام لم أقابلك فيه وأنا صائم عن الكلام.. فاتركنى الآن أفطر.. أفطر كلاما.. فإنى سأعود قريبا إلى الصيام.. الصيام عن الكلام.. وأعرف أن كل ما يهمك سماعه هو الحكايات.. كالأطفال ينتظرون الحكاية قبل النوم.. آسف.. لا أقصد أنك طفل.. ولكن أحيانًا يخيل إلىّ أن مستوى الشعب كله هو مستوى أطفال، لأنه شعب يميل إلى الحكايات ويضيق بالآراء.

المهم.

إنك تعرف أن المعركة فى ٦ أكتوبر الساعة الثانية

بعد الظهر.. ولكنى أنا بدأتها فى يوم ٥ أكتوبر ولم أكن أعلم شيئا عن ٦ أكتوبر.. لا شىء.. لم أكن أتصور أن كل هذا يمكن أن يحدث..

فى يوم ٤ أكتوبر اختار النقيب محمود ثلاثة من الفرقة.. أنا وخليل وعبدالرؤوف.. ولم يقل لنا أكثر من كلمة واحدة.. طالعين عملية يا رجالة.. ثم سافرنا فى نفس اليوم إلى الصعيد.. لن أقول لك إلى أين؟ سر..

وفى يوم ٥ أكتوبر، قضينا النهار نعد سلاحنا تحت إشراف النقيب محمود.. تقرر أن نحمل صواريخ، وقنابل زمنية ناسفة، بجانب مدافعنا وبنادقنا، وطبعاً بجانب التسليح الفردى الذى يشمل الخناجر وآلات الإرسال.. كل ذلك والنقيب محمود لا يقول لنا شيئاً عن سر العملية.. وسألته:

- مش تقول لنا يا أفندم عن العملية اللى حانقوم بيها..

وأجاب فى صوت حاسم:

- حاتعرف.

ولم أعرف إلا فى الساعة الخامسة بعد الظهر عندما جلس إلينا النقيب محمود ليقول لنا: إن العملية هى تدمير مركز قيادة إسرائيلى يقع خلف خطوط العدو..

وهو مركز يقع بجـانبه مطار.. كما يعتبـر مركز تجمع دبابات.. واسـتـعـرضنا الخـرائط، وشرح لنـا طبيـعـة الأرض، وقـال لنا إن العمـلية وضـعت فى المـسـتـوى الانتحارى، لأنـهـا إذا تمت بتدميـر مركز القيـادة، فإنها سـتـتـعرض للرد عليـهـا بالطائرات والدبابات.. وساعـة الصفر تحددت بالساعـة الواحدة بعد منتصف ألليل أى من صباح ٦ أكتوبر.

هل تعرف كيف عبرنا إلى سيناء ؟

بطائرة هليكوبتر.

لا تتعجب ولا تفغـر فمك من الدهشة.. كل ما يمكن أن نتـصوره أصـبح فى قدرتنا.. إن هذه الدهشـة التى ألمـحـهـا على وجـهك هى نفس الدهشـة التى واجـهت إسـرائيل.. إنهم أيضا لم يكـونوا يصدقـون أننا وصلنا إلى هذا الحد من التطور.

وقـد عـبـرت بنا الهليكوبـتر مـن خط أسـفل خليج السـويس.. واسـتـمرت بنـا حوالى نصف سـاعة فـوق سيناء.. هل تعرف حال المقـاتل وهو مقدم على العملية المكلف بها؟ لا تـدرى.. لقد كنا نضحك.. وعـبدالرءوف صمم على أن يغنى بصوت خفيض.. سالمة يا سلامة.. وخليل ألقى نكـتة بايخـة.. والنقـيب مـحمـود صـامت

يحاول أن يرى شيئا من خلال نوافذ الهليكوبتر.. وأنا كنت أضحك أحيانا على نكت خليل.. ولكنى كنت أصمت طويلا وأتذكر فاطمة.. وابتسامتها.. وابتسم لها كأنى أطمئنها.

وبدأت الطائرة تهبط..

هذا أول نصر تحقق.. عبرت الطائرة دون أن يتعرض لها العدو..

وبدأت أيدينا تتحرك.. كل منا يطمئن على وضع سلاحه.

وكل منا فى داخله همسة يرددها.. لاشك أنها همسات يتوجه بها كل مقاتل إلى الله.

. وبمجرد أن لمست عجلات الطائرة الأرض قفز منها محمود.. إنه دائما يسبقنا.. ثم لحقنا به.. ورفع محمود يده إلى قائد الطائرة فبدأ يرتفع بها.. لم يستغرق بقاؤها على الأرض أكثر من نصف دقيقة.. ربما عشرين ثانية فقط.. وابتعدت بسرعة حتى لا يصل صوت محركها إلى فرقة معادية يحتمل أن تكون قريبة منا.

وبدأنا تنفيذ العملية دون أن ينطق أحدنا بكلمة.. كان كل ما بيننا وبين قائدنا محمود إشارات باليد.. وكان مركز القيادة الذى نقصده يقع بعيدا عن المكان الذى

هبطنا فيه.. كان المفروض كما تحدد فى الخطة أن نتحرك على أقدامنا ما يقرب من ثلاث ساعات حتى نصل إلى الموقع.. وكنا نتحرك متباعدين أحدنا عن الاخر.. ونتحرك بما يشبه الزحف، فالليل مقمر وقد يفاجئنا العدو فى كل خطوة، رغم أن المنطقة التى اخترناها مفروض أنها خالية من أى نشاط للعدو.. ولكن من يدرى.. إن فى مثل هذه العمليات يجب أن نفترض الأسوأ دائماً .. المهم أننا كنا نسير نحن الأربعة فى خط واحد.. وكل منا يعلم مكان الآخر رغم أنه لايراه.

وتقدمنا ..

الساعة الآن حوالى الرابعة صباحا.. وقد بدأ الليل يغرق فى بحر من اللون الأحمر والأزرق، واتضحت الرؤية أكثر..

إن مركز القيادة يملأ أعيننا، ونحن الأربعة قد تجمعنا وراء تل صغير قريب، نراقب الحرس المعين أمام المركز.. إن اليهود مغفلون.. لقد ركزوا الحراسة عند مداخل الطرق التى تؤدى إلى المركز، ولم يخطر على بالهم أن العملية ستتم من خلف الموقع.

وأشار النقيب محمود بيده لنبدأ الخطوة التالية.. وكانت الخطة تفرض أن يتقدم محمود وأنا معه لنحيط

مبنى القيادة بنوع من القنابل الزمنية المتفجرة، بينما يتبعنا خليل وعبدالرءوف لحمايتنا.. إن محمود يضع نفسه دائماً فى المقدمة.

وزحفنا.. محمود وأنا..

وخليل وعبد الرءوف يزحفان على جانبينا..

ووصلنا إلى مبنى القيادة، وفى أقل من ثلاث دقائق كنا قد وضعنا القنابل الزمنية فى أماكنها.. وبدأنا نتراجع بسرعة.. سرعة الزحف.. وفى خط تحت مجموعة التلال والصخور التى تحيط بالموقع نثرنا مجموعة أخرى من القنابل الزمنية.. وتحصنا خلفها على مسافة بعيدة ونحن الأربعة راقدون فى أماكن متفرقة، تتيح لنا أن نصطاد كل من يخرج من مبنى قيادة المركز حيا.

وبعد دقائق أشار النقيب محمود بيده وبدأنا ننفذ بقية الخطة، فبدأنا نزحف حول المركز فى خط نصف دائرى، إلى أن وصلنا إلى الجانب الآخر منه.. إلى المكان المواجه للموقع الذى بدأنا منه.. وكانت هذه من أصعب مراحل العملية فقد كان محتما علينا أن نجتاز مراكز الحراسة دون أن يلمحنا الحراس.. وقد استطعنا بالزحف والاختباء خلف الصخور والرمال أن نصل إلى

الهدف المحدد بعد أكثر من ساعة من الزحف والاختباء.. وبدأنا هناك نقيم خطا آخر من القنابل الزمنية المتفجرة.. وبعد أن انتهينا زحفنا بسرعة إلى مركز متوسط بين الخطين اللذين زرعناهما بالقنابل.

هلا فهمت الخطة..

الخطة هى أن نشغل قوات المركز بتفجير مركز القيادة، ثم نوزعهم بين الخطين اللذين وضعنا فيهما القنابل الزمنية، وبهذا يكون قلب المركز خاليا من الجنود، فنهجم إلى داخله ونحطم الدبابات المتجمعة فيه.

ولم يكن الموقع العسكرى من المراكز الكبيرة.. كان كل ما يتجمع فيه أربع دبابات، وكان عدد أفراد قواته لا يزيد على الثلاثين.. وكانت العملية تتطلب الانتهاء منها بسرعة قبل أن يصل إلى الموقع أى إمداد خارجي.

وبدأت القنابل تعمل طبقا للتوقيت الزمنى المحدد لها.

انفجرت أولا القنابل المحيطة بمركز القيادة.. وضاع المبنى.. انفجر.. وقتل فى داخله كما علمنا فيما بعد، ستة من أفراد العدو بينهم ثلاثة ضباط برتب متفرقة..

وخـرج منه بعض الأفـراد أحـيـاء.. كنا نراهم بأعـيننا ورغم ذلك لم نـطلق عليـهم النار حـتى لا تكتـشف مواقعنا.

وتحرك المـوقع كله.. وقد أصبح النهار كـاملا.. إننا نراهم فى كل حركـاتهم.. إنهم يبحثون عنا.. وبعـضـهم يطلق الرصـاص فى الهواء.. مـجرد عـصبيـة وجنون.. وكانـت تحركـاتهم الأولى فى الاتجاه الذى يقـابل خط القنابل التى زرعناها عند حائط مبنـى القيادة، وخرجت ثلاث سـيـارات جـيب تجـرى فى هذا الاتجـاه إلى أن وصلت إحـداها إلى خط القنابـل الزمنيـة التى زرعناها فتوقـفت واتصلت بقيادتهـا، وبدأ عدد كبير يتـجمع فى هذا الخط ليحاولوا إبطال مفعول القنابل.. وتسلل فريق منهم خلف الخط للبحث عنا اعتقادا منهم أننا هربنا فى هذا الاتجاه.

وبعـد قليل اكتـشفت مـجمـوعة أخـرى خط القنابل الآخر فى الناحية المواجـهة، ورأيناهم يشيرون بأيديهم ويصـرخـون، إلى أن انضم إليـهم فـريق آخـر وبدءوا يحاولون إبطال مـفعـول القنابل، كما اتجـه بعض منهم بسيارات الجيب وراء الخط بحثا عنا.

وبهـذا أصبح مـركز القـيادة خـاليـا تقريبـا من كل القوات.

وأشار النقيب محمود بيده.

إننا فى آخر مراحل العملية..

واندفعنا زحفا إلى داخل الموقع.

إن الهدف هو الدبابات الأربع.. وكنا نعتقد أنها خالية من أطقمها الذين لاشك أن معظم أفرادها يشتركون فى إبطال القنابل.

ولكن الدبابات بدأت تتحرك فجأة.. إنها كاملة الأطقم.

وبدأنا نعتمد على صواريخ سام..

إنه صاروخ يحمله المقاتل فوق كتفه.. ويجب أن يقف به فى زاوية بعيدة عند فوهة مدفع الدبابة.. والإصابة القاتلة هى أن تصيب الدبابة فى حافة البرج، وبذلك يقضى الصاروخ على كل من فيها.

ووقف محمود فى المكان الذى اختاره وألقى صاروخه ودمر الدبابة.. لاشك أنها كانت مفاجأة لم يكن يتوقعها رجال الدبابات، فبدأت الدبابات الثلاث الأخرى تطلق النار بجنون.. تطلقه بلا حساب.

وفى الوقت نفسه بدأت القنابل الزمنية على الخطين تصل إلى توقيتها وتنفجر بعد أن عجز اليهود عن إبطال مفعول معظمها.

وقتلوا..

صدقني أن أكثر من نصف عدد أفراد الموقع قتلوا منذ بداية العملية وقبل الانتهاء منها.

وبدأت مجموعة أفراد من قوات العدو تحاول أن تعود إلينا وهم مسلحون بمدافع المترليوز.. وأصدر محمود أوامره بأن يتولى خليل وعبدالرءوف حمايتنا بينما نتولى - هو وأنا - أمر الدبابات، واخترت موقعى وقفزت واقفا وأطلقت صاروخا على الدبابة الثانية.. صدقنى.. لقد دمرتها.. والموقع كله أصبح شعلة من النار.. وأصوات القنابل ومدافع الدبابات والرصاص تملأ أذنى كأنها زغاريد الفرح.. فرحى بأنى أقاتل.. أنى قد أقتل فى أية لحظة، ولكن صدقنى أن صورة الموت لا تخطر على بال أى مقاتل وهو يقاتل، إن ما يشغل كل فكره هو تنفيذ الخطة وممارسة تدريباته واندفاعه إلى النصر.

ولكن ..

أين محمود؟

النقيب محمود..

لقد سقط على مسافة قريبة منى..

أصيب ..

وتلفت أبحث عن خليل وعبدالرءوف.. فلم أر إلا خليل على مسافة بعيدة منى.. أين عبدالرءوف؟ إنه هناك، وسلاحه ملقى بعيدا عنه.. سقط، واستشهد.. يا أولاد الكلب.. لن أبقى منكم واحدا.

وكان النقيب محمود لايزال يتحرك رغم إصابته.

وأشرت إلى خليل، فاقترب منى زحفا، ورقد خلفى ليحمينى.. وتقدمت زحفا إلى محمود.. إنه أصيب بطلقة فى صدره.. ربما لن تتركه حيا.. ورغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أترك محمود.. إنك لا تعرف مدى صداقتى وحبى وارتباطى به.. كنت أحس به كأنه القيادة كلها، رغم أنه لم يكن سوى منفذ لأوامر القيادة.. وأشرت إلى خليل وبدأنا نزحف ونحن نشد محمود معنا، وهو يصرخ:

- ارجعوا مكانكم.. العملية لسة ما خلصتش.. سيبونى.. مالكومش دعوة بيه.. دى مش شغلتكم.

ولكننا ظللنا نسحبه إلى أن اختبأنا وراء صخرة، واستدار خليل ليدافع عنا، والتفت إلى محمود لأبحث عن جرحه.

وإذا بى أفاجأ به وقد شهر مسدسه فى وجهى.. وقال فى حزم:

- اسمع أنت وهو.. أنا مايهمنيش أنى أموت ولا أنتم الاتنين تموتوا.. ارجعوا العملية.. لسه سايبين دبابتين.. وأنتم معاكم صاروخ.. اتصرفوا. وإذا فضلتم واقفين جنبى حا أعدمكم.. دى أوامر.

وذكرنى هذا الموقف بالخطأ الذى ارتكبته أثناء التدريب وعوقبت عليه، والذى سبق أن حكيت لك عنه.. لم يكن خطئى أيامها إلا أن زميلى عبد الغنى جرح أثناء التدريب، فتركت التدريب لأسعفه.. إن الإسعاف ليس من اختصاص المقاتل إنه من اختصاص فرق الإسعاف.

وأحسست أنى خرجت على الروح العسكرية الكاملة.

وأشرت إلى خليل.. وتركت محمود.. وعدنا إلى العملية.

لم يبق إلا صاروخ واحد. واتفقت مع خليل.. واتخذ موقعا فى مواجهة إحدى الدبابتين، وأخذت أنا موقعى بالنسبة للدبابة الأخرى وليس معى إلا قنبلة ومدفعى.

ولكن كان سلاح جديد قد بدأ يعمل فى الموقع.

الطيران..

الطائرات الإسرائيلية تحلق فوقنا وتطلق نيرانها.

ولا يهمك.. ثم إننا فى حماية الموقع نفسه.. لأن

الطائرات تتردد كثيرا قبل إطلاق النار خشية أن تصيب أفراد الفرقة الإسرائيلية الذين ما يزالون أحياء.. إنها لن تطلق النار إلا إذا تأكدت من شخصيتنا.

وبدأنا العملية..

وأطلق خليل صاروخه ودمر الدبابة التى يقصدها، واستدارت الدبابة الأخرى.. دبابتى.. استدارت نحو موقع خليل وهى تطلق النار عليه.. وتحصن خليل تحت الدبابة التى دمرها.. أما أنا فقد جريت خلف دبابتى، وقفزت فوقها ثم فتحت طاقة برجها بقدمى، وأطلقت مدفعى الرشاش فى داخلها.. قتلت كل طاقمها.. لقد كانت الرصاصة الوحيدة التى حملتها فى جيبى خلال ثلاثة أعوام سابقة، هى أول رصاصة خرجت من مدفعى الرشاش فى هذه العملية.

وقتلت كل أفراد الطاقم فعلا.. ولم أكتف.. ألقيت بالقنبلة التى فى يدى داخل الدبابة، وقفزت بسرعة قبل أن تنفجر.. وزحفت لأختبىء بجانب خليل تحت دبابته.

إن هذه العملية لم تستغرق أكثر من دقيقتين ربما ثلاث.. وتمت والطائرات الإسرائيلية تحاول أن تصيبنى، وطلقات من بعيد توجه إلىّ.. ولكنى لم أصب.. مازلت حيا كما ترى.. إن هذا يحدث كثيرا فى القتال.. أن

تصل إلى منتهى التهـور وتخرج سـالما.. لأن الله يكون معك.

ولكن ماذا يحدث؟

إننا نسمع أصوات طلقات عنيـفة صادرة من الاتجاه الآخر.. اتجـاه القناة.. إنها مـدفعيـة.. آلاف متتـالية من قـذائف المدفـعـية.. ثم صـواريخ.. صـواريخ تطلق من ناحيتنا.

ولم أنظر فى ساعتى لأعرف أنها الساعة الثانية.

ولم يدر فى خاطرى أننا فى يوم ٦ أكتوبر.

ولم أعرف أن المعركة الكاملة قد بدأت..

وشاهـدت من تحت الدبابة ثلاثة من اليهـود هـم كل من بقوا أحياء، يقفزون فى سيارة جيب ويفرون خارج الموقع.. لقد طهرنا الموقع كله.

وخرجت أنا وخليل من تحت الدبابة وتطلعنا حولنا.. لا أحـد.. ثم بدأنـا نزحف.. ولكن خليل أخـذته نشـوة الانتصـار فى العملية، وفـرحته بإتمامـها ولهفـته على زميله عـبدالرءوف وقائده محـمود، فقام واقفـا يجرى نحوهما فأصابته رصاصة.. ولم التفت إليه.. التفت إلى مصـدر الرصاصـة.. إنه يهودى جـريح نسيـه زملاؤه ملقى على الأرض وفى يده سلاحه.. وفى ثوان كان قد

مات.. قتلته.. إن الدرس الذى تعلمناه هو ألا نطمئن إلى الجثث الملقاة إلا بعد أن نتأكد من أنها همدت.. وخليل لم يتذكر هذا الدرس.

وبدأت أزحف حول الجثث فى احتراس إلى أن اطمأننت أن ليس من بينها أحياء.

وبعدها وقفت على قدمى..

وجريت أبحث عن خليل..

لقد استشهد.. لم ألحقه لأسمع كلمته الأخيرة..

وأخفيته تحت الرمال، وعلقت بجانبه بندقيته حتى لا أتوه عن مكانه عندما أعود لأنقله إلى ضريح الأبطال.

وعبدالرءوف .. لقد سبقنا كلنا إلى مجد الاستشهاد.. وأخفيته هو الآخر بين الرمال، وعلقت بجانبه سلاحه، لأعود إليه..

سأعود..

حتما سأعود ما بقيت على قيد الحياة..

وسرت إلى النقيب محمود..

إنه سليم.. رغم كل مانزف من دمه، لايزال سليما.. وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة ولكنها ابتسامة رضاء.. إنه يعلم أن عمليته قد تمت بنجاح وإذا كان خليل

وعبدالرءوف قد استشهدا فقد دفعت إسرائيل ثمنا لهما حوالى ثلاثين من رجالها، غير تدمير موقع دبابات تدميراً كاملاً.. إنها أربع دبابات فقط من بين أكثر من خمسمائة دبابة خسرتها إسرائيل فى الحرب.. ولكن دبابتنا الأربع كانت الأولى.. وكانت مهمتنا هى أن نشد انتباه القيادة الإسرائيلية العامة بعيدا عن ضفة القناة حتى تبدأ المعركة الكبرى.

وبدأت أعالج محمود بالأقراص التى نحملها.. إن هذه الأقراص أصبحت سلاحا جديدا من أسلحة الجيش.. إنك لا تعلم ماذا تحمل هذه الأقراص؟ إنها تحمل كل شىء.. الغذاء.. والدواء.. بل يمكن أن تعوضك عن الدم المفقود.. ويمكن أن تسد عطشك وتغنيك عن الماء.

وقرر محمود أن نبقى فى موقعنا حتى الليل.. فهو موقع فى عمق سيناء، خلف خط بارليف، والحركة من حولنا تشتد بعد أن بدأت الحرب، ومن الأفضل لنا أن نتستر فى الليل.

● ● ●

لا ..

لا يا صديقى لا تحدثنى عن بطولتى، ولا تطلب منى أن أبدو أمامك بطلا.. إن البطولة فى الجيش لم تعد

مجرد بطولة فردية.. لقد أصبح بيننا نوع من التنافس على البطولة.. حتى أصبح المجال الذى نتحرك فيه كلنا هو المجال الذى يصنع الأبطال.

وقد بدأت أرى وأسمع بالأبطال وأنا مازلت بجانب النقيب محمود فى مخبئنا وراء خط بارليف.

لقد حلق فوقنا سرب من الطائرات المقاتلة والقاذفة.

إنها طائرات مصرية.

وصواريخ وقنابل اليهود تواجهها، وهى مستمرة فى طريقها.. لابد أنها تقصد المطار القريب لتدميره..

وكنا نهلل لها من أعماقنا - محمود وأنا - وندعو لها.. وفجأة رأيت إحدى الطائرات - طائراتنا - تصاب ربما بضربة صاروخ، أو قنبلة من القنابل المضادة.. واشتعلت النار فى ذيلها.. واعتقدت أن الطيار سيلقى بنفسه بالبراشوات.. بل إن محمود أعد الخطة التى سيكلفنى بها، لأصل إليه بعد أن يصل إلى الأرض، وأشترك فى حمايته إلى أن ينضم إلينا.

ولكن لا..

طيارنا البطل لم يقفز من طائرته، ظل يقودها وهى تحترق، ومحملة بكل ذخيرتها من القنابل، متوجها بها إلى المطار الإسرائيلى، إلى أن سقط بها وسط مجموعة

من المراكز وطائرات العدو.. واشتعلت النار فى المطار كله.. وتفجرت كل القنابل التى كانت تحملها طائراتنا.. وتحطم للعدو أكثر من خمس طائرات خلاف المراكز التى سقطت فوقها طائرتنا.

واستشهد البطل..

وعندما أبلغت عن هذه الحادثة بعد أن عدت، عرفت أن قائد السرب قد أمر الطيار بأن يقفز من طائرته بعد أن أصيبت، ولكنه رفض.. رفض إطاعة الأوامر.. ونفذ العملية على مسئوليته وهو يعلم أنه لن يعود.

وكم عرفت وسمعت..

هل سمعت عن الباشويش عوض عبد الله..

لقد كان بين مجموعة تهاجم خط بارليف فى الموقع الذى حدد لها.. وواجهت هذه المجموعة دشمة لها فتحة يخرج منها رشاش يقف خلفه يهودى.. وأتعب هذا الرشاش كل المجموعة.. إنها لا تستطيع أن تتقدم.. وقد أسقط الرشاش كل من حاول أن يتحداه ويتقدم.. أتدرى ماذا فعل الباشويش عوض؟ لقد زحف حتى أسفل الدشمة، ثم انتصب واقفا وسد الثغرة كلها.. سدها بجسده.. وتلقى وحده كل رصاص المدفع الرشاش، ليترك بقية المجموعة تتقدم.

وأكثر..

هل سمعت عن بطولات الجيش الثالث؟

إنه وهو هناك على الضفة الشرقية تولى إنقاذ السويس.. لقد استطاع أحد القادة أن يعبر هو وجنوده القناة سباحة.. وربما سبحوا تحت الماء.. فقد كان الحصار كاملا حول السويس.. واستطاعوا أن يصلوا فعلا إلى الشاطىء.. ثم وصلوا إلى داخل المدينة.. وحاربوا.. صدوا كل محاولات اليهود في الاستيلاء على المدينة، لقد دمروا له أكثر من ثلاثين دبابة.. وأسروا ثلاثة وعشرين مقاتلا إسرائيليا. أسرى يهود داخل السويس.

إن قصة السويس، كما سمعتها تحتاج إلى أيام لأحكيها لك..

وأكثر .. وأكثر.. إن البطولات تعددت حتى لم تعد تستطيع أن تحصرها في فرد تقيم له تمثالا.. كما تحاول الآن أن تقيم تمثالا في خيالك.. هل تصدق؟! لقد كان بين مقاتلينا مجموعات كاملة تلقى بنفسها فوق الألغام ليمر فوق أجسادها بقية المجموعة.. هل تصدق؟! هل سمعت عن مثل هذه التضحيات في تاريخ الحروب كلها؟!

لم يكن النصر سهلا..

المهم لنعد إلى ما كنا فيه..

لقد بدأ الليل.. وبدأنا نتحرك - محمود وأنا - وكان محمود قد رسم خط سيرنا طبقا للخريطة على أساس أن نصل إلى الشاطىء بعيدا عن خط بارليف.. وسرنا وهو مستند على كتفى، وأصوات النيران المنطلقة من بعيد لا تهدأ، وكان محمود يسقط أحيانا من التعب فأحاول أن أحمله ويرفض، ليقوم ويسير.. إن القوة التى بذلها محمود فى مقاومته لجرحه توازى قوة عشرة رجال.

وبدأ الصباح..

إننا مازلنا وراء خط بارليف..

وبدأنا نبحث عن موقع نختبىء به ونحتمى فيه..

وفجأة.. وسط هدير النيران.. بدأنا نسمع أصوات آليات تقترب.. لاشك أنها دبابات ولوريات.. ثم اشتدت كثافة الطائرات فوقنا.. ماذا يحدث؟ لا ندرى.. وتبادلنا التفاهم - محمود وأنا - فى صمت.. لن نستسلم لا أنا ولا هو.. وبدأنا نعد ما بقى لنا من سلاح ومن ذخيرة.. ومحمود لأنه متعب سيبقى فى مكانه.. وأنا سأتحرك حوله بما بقى لى من طلقات وقنابل يدوية.. إلى أن

يستشهد كلانا.. لن نقبل الأسر أبدا حتى لو فرغت ذخيرتنا، فسنهجم بالخناجر إلى أن نموت..

وبدأت الآليات تظهر أمامنا..

مش معقول..

إنها مصرية..

قواتنا وراء خط بارليف..

وتبادلت أنا ومحمود نظرات الدهشة المتسائلة.. ثم صرخنا.. صرخات الفرح.. وقمنا نجرى نحو قواتنا.. حتى محمود رغم إصابته فى صدره كان يجري.. وكل منا يرفع يديه فوق رأسه حتى لا يخطىء أحد ويعتبرنا من قوات العدو.

استسلمنا..

استسلمنا لجيشنا..

استسلمنا لمصر.

وكنت أريد أن أقبل كل وجه وأصافح كل يد.. وأنا أضحك.. لقد عدت إلى أهلى رغم إنى مازلت فى سيناء.. ولكن لم يكن هناك مجال للمصافحة ولا للقبلات، ونقل محمود بسرعة إلى عربة إسعاف من عربات الحملة، وركبت معه.. وعادت بنا إلى القناة.. وعبرت بنا فوق الجسر الذى أقيم.. وما كادت تصل

إلى الشاطىء الآخر، حتى قفـزت منها، وألقيت سلاحى، وعدت أعبر الجسـر، إلى سيناء سائرا على قدمى، وبلا سلاح، كأنى أسيـر فى أحد شوارع بلدى. هذا ما كنت أريد أن أحس به.. أن أصل إلى سيناء كـأنى أسير فى أحد شوارع بلدي، بعـد أن عشت سبع سنوات لا أصل إليها إلا مقاتلا..

وعدت إلى شاطىء سيناء..

وألقيت بنفسى على الأرض ونمت..

دعونى أنام، لقد مضى علىّ ثلاثة أيام لم أنم.. أريد أن أنام سالما فى سيناء..

● ● ●

القرية ؟!

طبعا عدت إلى القرية..

وفوجئت .. كأنى عدت إلى عالم جديد.. لقد استقبلت وكأن كل أهل القرية كانوا يقاتلون معى.. أو كأنى كنت أقاتل من أجل كـل واحد منهم.. الحيـاة كلها أصـبحت كـأنها مـعركـة.. حتى عـوضين الفـلاح رأيته يضـرب بفأسه فى الأرض كأنه يحاربهـا.. يحاربها حتى تعطيه حقـه.. وفاطمـة.. كم تغيـرت فاطمة.. كـأنه لم يكن فى حياتها حادث.. كـأن عباس بيه لم يكن فى القرية أبدا..

لقد استقبلتـنى كأنها الفتاة الصغيرة التى أحـببتها منذ كنت صـغـيـرا.. اسـتـقبلـتنى والحـيـاة تنبض فى كل ما فيـها.. فى عينيها.. فى وجنتـيها.. بين شفتـيها.. بل إنها تطورت إلى حد الجرأة.. لقد اندفعت إلىّ بمجرد أن رأتنى.. وألقت بنفســها على صدرى رغم أن عـمى كان جـالسا مـعنا.. وهى تكرر: الحـمـد لله على السلامـة.. الحمد لله على السلامة.

لا .. ليـست المعـركة وحـدها صاحـبة الفـضل.. إن عبـدالحميـد وكيل الجمـعية الـزراعية الجـديد هو أيضا صــاحب الفـضل.. إن حنبلتـه فى التـمـسك بالقـوانين واللوائح غيـرت البلدة كلها.. إن عـمى الآن لا يسـتـقبل البهوات فقـط داخل الدار، إنه يجلس مع الفلاحين على المصطبة.. تصور!

ماذا تقول؟

لا ..

لن أتزوج الآن فاطمة..

إن الزواج حياة كاملة، والحياة لا تكمل مادمت أحمل هذه الرصــاصة الواحـدة فى جـيبى.. إنى مـازلت كمـا تعودت.. أنزع رصــاصة من بندقـيتى كلمـا توقفت عن القـتـال واحـتفظ بـها فى جـيـبى إلى أن أعـيـدها إلى

سلاحـــى عندما أبدأ القـتال من جـديد.. وقد فـعلت هذا هذه المرة أيضـا.. وســتبقى الرصاصة فى جـيبى مادام هناك يهودى على أرضـى.. إن أرضـى تبدأ من سيناء.

نعم إن القتال توقف..

لم أكن أريده أن يتوقف..

ومادام هناك يهودى على أرضـى فكل أملى معلق فى هذه الرصـاصة التى أحملها فى جيبى..

عن إذنك..

يجب أن أذهب..

(تمت)

رقم الإيداع ٥٩٠٠/٩٨
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0742 - 7

To: www.al-mostafa.com